جمهورية الحمقى

رواية

أوكفيل عبدالحكيم

الطبعة الأولى

2021م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: جمهورية الحمقى

اســـم المـؤلف: أوكفيل عبدالحكيم

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــداع: 2482 / 2021

الترقيـم الدولي: 0 - 74 - 6749 - 977 – 978

تـصميـم الغلاف: م. منى الموجي

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

جمهورية الحمقى

رواية

أوكفيل عبدالحكيم

2021

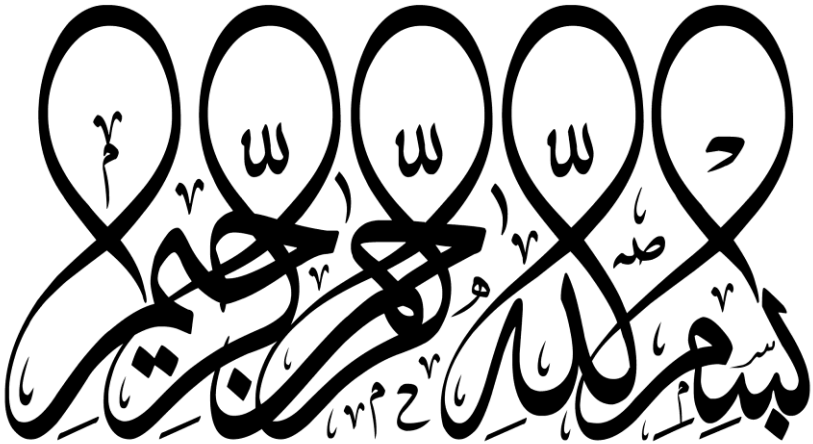
بسم الله الرحمن الرحيم

لكلّ ذوّاق للحرف العربيّ ...

و لمن في نفسه رغبة جعلت لنفسها فسحة للفكاهة و الضّحك الهادف ...

أوكفيل عبدالحكيم

****

مقدّمة

يقال في المثل:"يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدوّ بعدوّه"، و فعلا الواقع المعيش يؤكّد لنا ذلك في صور شتّى، فما أكثر من ضيّعوا علما كان سينفع الناس دنيا وآخرة، وما أكثر من هدموا صرحا كان على وشك القيام، يقلبون الخير شر، والشرّ فيهم أشرّ، وجودهم مصيبة، و غيابهم راحة و طمأنينة.

هؤلاء خطرٌ على أنفسهم وعلى الذين خالطوهم، بل خطر على كلّ من سمع بهم و اهتمّ لأمرهم و حاول الوصول إليهم لمعرفة المزيد عنهم.

لكن ماذا لو جمع الجاهل إلى جهله حبّ الظّهور و التملّك؟

ماذا لو كان هذا الجاهل على جهله وحبّه الموهوم مغرورا غبيًّا؟

سيصير إثر ذلك -و إذا تمكّن- خطرا مُحدقًا يُحسب له ألف حساب، ذلك لأنّ الغباء كالدّاء يستشري في النّفس ثمّ في العباد، ولا يترك أحدا إلا وجعله كسابقه في نقص العقل والبله، ومع الغرور الدّافع لكلّ شيء وأمر، فإنّه يُصيّر صاحبه عجلا بثوب أسد، عملاق من ورق، فلا يطيل

سامعه أو رائيه مخالطته حتى يدرك حقيقته المخزية وعورته البائنة، ليسأل نفسه سؤالا يعي إجابته: ما الذي يصدر من غبي غير الغباء؟

تلك الكلمات التي تخرج من فيه سفيه ختم على جبينه، وكلّما زاد زادت الأختام حتّى ملأته، فعرف به القاصي والدّاني، وسمع به القريب والبعيد.

إن تاب "الجاهل الغبيّ" عن سابق ما فعل فقد نجا و فاز، و من أغرق نفسه في خيالاته الأبديّة فلن تنتهيَ بالتّأكيد عذاباته، و لن يهنأ معه بالضّرورة مخالطوه ومن عرفوه، فهو ينقل مرضه الفتّاك إلى غيره من دون علمه ...

"أمران لا حدود لهما: الكون والغباء البشري، مع أني لست متأكداً بخصوص الكون "كما أكّده ألبرت أينشتاين، وأكد عليه ووافقه سالفادور دالي: "لا تناقش غبيًّا، فالنّاس لن يدركوا أيّكما الغبيّ".

خطورة الغبيّ كبيرة، وجهله تاج يلمع بجهالاته وسفاهاته، فما بالك إن كان مغرورا بكلّ ذلك مُصرًّا على ما يقول ويفعل، لا يقبل النّصح والإرشاد ويبقى على عهده إلى أن ينتهي ويُنهي معه الآلاف، عشرات الآلاف، بل الملايين.

هاته الرّواية تقصّ علينا مغامرات ثلاثة أصحاب، تعارفوا في الابتدائية، أطفال تشاركوا صفات وهوايات، عادات وتصرفات، حتى صار أحدهم يُعرف بالآخر، ملازمون لبعضهم في صداقة وثيقة قويّة، جمعتهم الغباوة ليصيروا

فيها الأوائل، وسارت معهم في طريق حياتهم إلى المتوسّطة، ومع كلّ سنة تمرّ تزيد شدّة بلاهتهم، فانفردوا بتلك الصّفة وصاروا ملوكا عليها، لا يقارعهم أحد فيها إلا وهُزم، استمرّت الحياة وكانوا كذلك مع بعضهم في الثّانوية، آخر محطّة لمشوارهم الدّراسيّ، فما استطاعوا أن يدفعوا بعقولهم أكثر إلى الأمام، وقد كانت معجزة أن وصلوا إلى هذا المستوى، إلى برّ الأمان، لم يكملوا سنتهم تلك وأخذ كلّ واحد طريقه، أرادوا أن يصيروا أحسن، أن يكونوا أهل نفع لمجتمعهم، غير أن الأقدار أبت، بل جمعتهم يوما بعد طول غياب في لقاء كان بداية النّهاية للملايين من النّاس

....

يريدون بشتّى الوسائل تحقيق مشروع مجنون، مشروع القرن، يرفضون الاستسلام ويرمون الوصول فيه إلى نقطة النّهاية، يرون بأم أعينهم أنّ هلاكهم فيه وهلاك الآخرين مسألة سويعات قليلة، غير أنّهم في طغيانهم يعمهون.

....

يقول أناتولي فرانس: "الغباء أخطر بكثير من الشر، فالشر يأخذ إجازة من حين لآخر أما الغباء... فيستمر!".

ما أحداث هاته الرّواية إلاّ تذكير بسيط لما يستطيعه السّفيه الجاهل إن كان زيادة على ما سبق عنيدا وللحقّ عدوًّا، ما سيقع من كوارث فيما يلي هو نتاج اجتماع عصبة من أشدّ هؤلاء عتيًّا، فما أصعب أن تعيش بين هؤلاء، و يا سواد عمرك إن صرت منهم ...

الفصل الأوّل: جليل

في حيّ شعبيّ تهلهلت عظامه، وتساقطت أطرافه، حيّ نسيه الأحياء ليسكنه الأموات، بعيد عن الحضارة، بعيد عن الإنسانيّة، مُظلم حزين، عليه غمامة الفقر و القهر تغطّيه مدى الدّهر، وفي عائلة فقيرة شبه معدومة، من عشرة أفراد يعيش"جليل"المُكنّى بـ "المجنون"، شابّ طويل القامة أسمر البشرة قبيح ذميم، كثير الكلام قليل الإفادة فيه ...

"جليل"ناقم على الكلّ، يرى نفسه مظلوما مقهورا، سبب فقر عائلته و سوء حاله هذا المجتمع الذي لم يهتمّ به المرّة، و لم يعره أذنًا البتّة، يدرك أنّ الكلّ ضدّه، لأنه معدوم، لأنّه فمٌ زائد يطلب و لا يُنتج، يشتكي و لا يبحث عن حلّ يخرجه من بحر همّه إلى برّ الأمان، الخطأ ليس خطأه وحده على كلّ حال، لهذا هو على الدّوام مهموم، يلبسه شؤم مشؤوم، ومع ذلك هو جريء إلى حدّ ما، فهو يحشر نفسه في كلّ كبيرة و صغيرة، و لا بدّ لمثله أن يكون له في كلّ مقام مقال، و في كلّ مسألة رأي، فإن استتبّ الاتفاق كان له الرّأي المخالف، وإن كان الجمع على حالهم فرحين ومسرورين فرّقهم بغبائه، إن حدث ومازح أحدهم جعل يومه مرًّا حنظلا بثقل مزاحه، حتى أهله لم يتحمّلوه:

"يا بنيّ من أين أتيت قُل لي؟ أنا أبوك وقد قاربت السّبعين لم أشهد، لم أقابل، ولم أرَ قطّ أجهل منك في حياتي، ما الذي فعلته حتّى أُنجب ابنا مثلك قُل لي ...؟".

كلام تعوّد عليه، وصار لا يؤثّر فيه مع التّكرار و التّقادم، بل اتّخذه مزحة وتسلية، نكاية في أبيه وانتقامًا منه، ضحك كلّما سمعه، ثمّ تجاهل أباه بقوله:

"يا أبي كان عليك أن تفكّر مرّتين قبل أن تغلق الباب عليك مع أمّي تلك الليلة".

ثارت عليه الثّائرة، و الكلّ نهاه و أنكر عليه سوء أدبه و جرأته على أبيه، لتكمل أمّه كلام والده:

"هذا الذي نقصك بالفعل، لا مُستوى، لا عمل، ولا احترام، و ختمتها بموت الحياء".

"أصدقكما القول، لا أستحي منكما لأنني لا أجد شيئا أستحي منه، وإن حدث ووقعت فيما ذكرتماه فالخطأ خطؤكما و ليس خطئي، ألستما من ربّياني على ذلك ؟".

"لم نربّك على هذا صغيرا، والآن و قد طرقت أبواب الكهولة هل إلى التربية من سبيل ؟".

"لا يهمّ ما تقولينه يا أمّي، فالمصيبة وقعت و انتهى".

"أيّ مصيبة ؟".

"مصيبة وجودي ... وخصوصا بينكم".

خرج بالضّرب من البيت و بالشّتم من كبيرهم إلى صغيرهم، مجدّدا وجد نفسه كالكرة المجنونة تتقاذفها جدران العمارات المائلة في هاته الشّوارع الوسخة المظلمة، أثار المشاكل في كلّ زاوية و مكان، عيّر هذا واستهزأ بآخر، جمع "دعوات الشّر"ولعنات الكبار في كيسه الذي امتلأ، وبعد أن ثقل عليه حمله، عاد وقت المغرب إلى بيته، أفرغه في البيت المشؤوم ذاك وأعاد ملأه بدعوات أبيه وأمّه السّاخطة، وحتّى من إخوته ناله منهم ما ناله من أبويه، غير أنّه وكما سبق لم يأبه، لربّما لا يحسّ، بل ضحك وتمادى، حتّى باتوا يتمنّون رواحه دون رجعة.

هذا من عناده وشرّ نفسه، أمّا من غبائه أنّه ظنّ أنّ الحيوانات تصوم كما يفعل المسلمون شهر رمضان، وكذا الاثنين والخميس ثمّ تفطر، وأنّ الظلّ يقصر ويطول بطول القامة وقصرها، فمرّة طويل ومرّة قصير، وأنّ القمر له قرابة عائلة بالشّمس، بالتّحديد: القمر زوجها، و النّجوم أولادهما مشتّتون هنا و هناك، يهربون نهارا ويلتقون في سماء واحدة ليلا، وأنّه إذا فقد الإنسان يدا أو رجلا فإنّ العضو ينمو مرّة أخرى كما فروع النّبات، و من لم يسق نفسه بالماء كفاية فلن يكون، وغيرها من أنواع و أصناف الغباوة ما ندُر حصولها، يكفي أنّه وفي أحد المساجد وفي خضمّ خطبة الجمعة قاطع الإمام صارخا:

"يا إمام أجرني ... يا إماااااام".

"ماذا دهاك يا ولدي؟ ما بك ؟".

"أجرني أرجوك ... أكاد أهلك".

انتفض الجمع الحاضرون و التفّوا حول "جليل"متسائلين عمّا أضرّ هذا الذي يتكوّر على السجّاد دون توقّف ...

"ما بك ؟".

"ما الذي حصل ؟".

"مم تشكو يا أخي ؟".

"ربّما به جِنّة .. يحتاج رقية".

"بل مريض يحتاج إسعافًا".

قد أهمّهم أمره و قلقوا بشأنه، حتّى وقف صامدا ينظر فيهم نظرة المنتصر، كالخارج من حرب ضروس و كأنّ شيئا لم يكن:

"لا داع للقلق ... فعلتها".

"ما الذي فعلت ؟".

"فعلتها لأن الوقت لم يكفني لأن أذهب... بيت الوضوء بعيد فقررت أن أفرغ جعبتي هنا".

"ماذا تقصد ؟".

"جعبتي قصدت بها مثانتي".

نظر الكلّ في السجّاد وإذا بها بقعة حيث كان، فطفق الإخوة يتجاذبونه ليطردوه خارجا والإمام المسكين بينهم يحاول تهدئة الأنفس وإرجاع النّظام:

"يا إخوان ... يا إخوان ... اتركوه يذهب، إنّه والله أعلم "مجنون"لا يدري ماذا يفعل".

نفذ من بين الأيدي و تسلّل خارجا:

"أتركتم تنظّفون بوْلي ... احذروا أن تتركوا شيئا منه".

هرب سريعا قبل أن يصل به من انطلق حذوه، ليكتشف الإمام أخيرا أنّ هذا "المجنون"و في أثناء المعركة التي قامت منذ قليل، سرق له هاتفه النقّال وورقة خطبة الجمعة، وإذا به يلعنه ويدعو عليه شرّ الدّعاء.

"المجنون"، أفعاله و أقواله نابعة عن عقل لا يرى الحقّ إلا في ذاته الغريبة، عنيد عناد الحمار في ثبوته، أتعب هذا النّحيل كلّ من أراد مداواته، وآخرهم ذاك الطّبيب النّفسانيّ المسكين:

"ما اسمك ؟".

"وما شأنك باسمي ؟".

"قضيّة تعارف".

"ومن قال لك أنّي أريد ذلك؟ لولا أبي الذي أقسم أن لا أدخل البيت حتّى أزورك لما أتيت".

"أتدرك لماذا أنت هنا ؟".

"بالطّبع أعلم".

"هل لك أن تذكر لي سبب وجودك إذن".

"لا قُل لي أنت".

"لكنّي من طرح السّؤال يا أخي".

"وهل طرح الأسئلة حكر عليك ؟".

"لا حول و لا قوّة إلاّ بالله".

"نسيتَ العليّ العظيم".

"كنت سأقولها ... لكن ... انتظر ... ما دخلك فيما أقول ؟".

"يعني أنت تتدخّل في حياتي و تريد التعرّف عليّ و تمنع الآخرين أن يتدخّلوا في شؤونك؟ اللّهُمَّ لا تحاسبنا بما فعل السّفهاء منّا".

غضب الطّبيب ... فقد بوصلته:

"أنا هنا لمداواتك يا ... أخي".

"لست أخاك و إنّما اسمي "جليل"".

"يااااااا "جليل"أبإمكانك أن تصمت قليلا و تجيب فقط قدر السّؤال".

"لا".

"لماذا؟".

"لأنّه إن طرحت عليّ سؤالا ولم أفهمه سأسألك طالبا إعادته لي بطريقة أخرى أو أن تنتقل إلى آخر، وهكذا ستضيّع وقتك و وقتي، لماذا؟ لأنه سواء أشرحت أم لم تشرح فلن أجيب ... و لماذا يا ترى ؟".

الطّبيب بغضب: "لماذا ؟".

"لن أقول لك ... لأنّي لا أريد".

قفز الطّبيب من كرسيّه صارخا ممزّقا ثيابه و جاذبا شعره:

"اخرج الآن ... لا أريد أن أراك مجدّدًا".

"سبحان الله، في الأوّل وجه و الآن وجه ثانٍ؟ ".

"انتهى التّقاش ... اخرج".

"عليك أن تهدأ، لا يليق بطبيب نفسانيّ أن يفقد أعصابه".

"قلت اخررررررررررررررررررج".

"ألف دينار".

"ماذا ؟".

"قُلت ألف دينار".

"تريد أن أعطيك ألف دينار ؟".

"تماما".

"ولماذا؟".

"ليس من شأنك".

"اللّعنة عليك... اخرج من هنا... قلت لك اخرج".

"لن أخرج حتّى آخذ الألف دينار".

نهض الطّبيب يريد اقتناص "خليل"الذي هرب وحام حول مكتبه، هذا الأخير جرى وراءه في مشهد "القطّ و الفأر"...

بعد لحظات استسلم الطّبيب، فقد نال منه التّعب والإرهاق، كاد يبكي، أخرج الألف دينار من جيبه و رماها بالقرب من غريمه:

"خذها و اغرب عن وجهي، لا أريد رؤيتك مجدّدا أفهمت ؟".

"سأعود بعد أيّام، جهّز لي ألفيّ دينار".

جنّ جنون الطّبيب المسكين و صرخ:

"هاااااااااااااااااااااا اخررررررررررررررررج".

بسرعة أخذ "خليل" الألف فرحا، فتح الباب وفرّ هاربًا في الوقت الذي دخل فيه الممرّض المساعد متأخّرا:

"ما الذي يحدث يا طبيب ؟".

"تبًّا لهذا ... لهذا ...".

لم يكمل كلامه حتّى انقضّت عليه أزمة لم تفلته ... فمن حجرته إلى المستشفى مباشرة ...

نهاية كلّ من خالط "المخبول"... كلّما زاد جنونه زاد كره النّاس له و نبذهم إيّاه، فتحرّى الانتقام منهم بشتّى الوسائل، غير أنّ عناده و شقاوته لم يُشفيا غليله، فهو الآن يريد الانتقام من الكلّ: من أبيه وأمّه، من إخوته الذين لم يأبهوا له، من جيرانه الذين لم يسألوا عن حاله، من هؤلاء الذين مرّوا عليه فنظروا فيه نظرة الاحتقار، أراد الانتقام من رئيس البلدية "الشّبح"، من رئيس الدّائرة ووالي الولاية، أراد النّيل من الوزراء ورئيس الحكومة وحتّى رئيس الجمهوريّة، أن يصبّ جام غضبه وكلّ ما جمعه من بؤس وشقاء وحاجة وفقر وحزن وألم على هذا الشّعب الذي هو غثاء كغثاء السّيل لا ينفع في شيء، على الأقلّ يصنع عدالته بنفسه في زمن اليُتم و القهر.

"سأردّ الصّاع صاعين لكلّ من شكّك بقدراتي وكفاءاتي، سأنتقم لنفسي من هذا المجتمع الذي احتقرني ولا زال، سأريكم ما الذي يمكنه أن يفعل شابٌّ مفعم بالحيوية والنّشاط، شاب حالم رغم كلّ شيء، ستندمون أشدّ النّدم".

كان لا بدّ للـ"مجنون"أن يردّ الاعتبار لنفسه الغاضبة، أن يستعيد كرامته الضّائعة لسنوات، لذا لابدّ من التّفكير بخطّة جهنّميّة محكمة التّفصيل مضمونة النّتائج، تقلب الموازين و القوانين، وتردّ الحقّ له على ما ظنّ.

على قلّة نباهته وذكائه أدرك أنّ هذا الأمر صعب، وتحقيقه لوحده مهمّة شبه مستحيلة، فتدخّل القدر بما كُتب في صفحاته من مفاجآت غير منتظرة...

عدّل مساره و وجّهه مرّة أخرى ...

كتاب القدر الذي لا يمكن التكهّن بما فيه ...

حتّى إذا قرأه "جليل"استبشر خيرا ...

أطلعه على من سيعينونه لتحقيق هذا الحلم المجنون ...

برفيقيّ الدّرب اللّذان افتقدهما كثيرا، ولم يراهما منذ مدّة ...

تلك الفرصة الذّهبيّة لتحقيق مشروع القرن، محال أن يفوّتها.

الفصل الثّاني: مروان

في قصر على هضبة خضراء عالية هناك، تعيش عائلة من أغنى أغنياء هذا البلد، عائلة "دينار"، قصر لا مثيل له حتّى في الرّوايات القديمة، حتّى في الأحلام الجميلة، رخاميّ يلمع، زجاجيّ ملوّن، بأعمدة و أقواس ذهبيّة، على اليمين و الشّمال حدائق غنّاء، ملاذ طيور و عصافير نادرة، زهور و أشجار تنازعت الجمال فاقتسمته، أينما يولّي الواحد فينا وجهه حُسن وإبداع، في هذا القصر البعيد عن المدينة يتمتّع أهله بالأمان والطّمأنينة، بالهدوء والسّكينة، في رحم طبيعة احتضنتهم كما احتضنت الأمّ صغيرها.

خدم كثر في هذا القصر، كلّ ومهمّته، يعملون كالسّاعة، يأتمرون بأمر المالِك وينتهون بنهيه، هذا المالك كريم خلوق ومحبوب، زوجه امرأة حسناء على كبر سنّها، لطيفة حنون، أمّا الأبناء فلآلئ الخَلق والخُلُق، جمعوا الجمال والذّكاء إلاّ واحد، في الأصل هم أربعة، ثلاث بنات وولد، ذاك الولد كان كالقطران الذي أفسد أنهار حليب تجري، فتغيّرت و استحالت إلى سواد.

هذا الشّاب يُدعى "مروان"، فاحش السّمنة، أبرز صفاته البلاهة، يقضي يومه في النّوم والأكل، و كذلك في التذمّر، فلا يعجبه العجب رغم كلّ ما وفّره له أبوه من أسباب الرّفاهية، ذلك أنّ حنان أمّه الزّائد غرس فيه التّكلان في كلّ صغيرة و كبيرة، وشبّ على ذلك رغم تحذيرات وتوصيات الوالد، فبات عديم المسؤوليّة، خامل كسول، إن أخطأ أدان به آخر، وإن فشل في أيّ عمل أرجع أسباب فشله إلى الظّروف، إلى المواد أو الأشخاص، إلى التعب، الجوع

والمرض، إلى الرّياح أو الغبار وكلّ ما تحرك وسكن، المهمّ أنّه مغلوب على أمره، والسّبب خارج عن نطاقه مهما كان.

لا تنقصه البلادة، عكس أخواته تماما، لا فطنة ولا نباهة، إذا تكلّم أدهش، أينما توجّهه لا يأتي بخير، هو بطيء الحركة والفهم، حركة جسم وعقل، مدلّل كثير الدّلال، شديد الهشاشة، تحسبه طفلا في السّادسة، إن رفعت صوتك قليلا في حضرته بكى، وإن نصحته كذلك، حتّى وإن مازحته بكى، يظنّ كلّ كلمة عليه، يشعر بنقصه لكنّه يرفض معالجة نفسه، يرى الكلّ ضدّه إذا خالفوه الرّأي، لا يتقبّل الآخر، غير أنّه يحبّ فرض رأيه على الغير، و لو عنوة، بسببه مرض أبوه بالسّكريّ وأمّه بمرض القلب، ذلك لخراب منطقه واستحالة تقويمه، و كان آخر ما أهلك به أبويه الحوار الذي دار بينهم في شأن العمل.

"مروان"لا يملك شهادة، له مستوى ثّالثة ثانويّ، بعدها ترك الثّانويّة و لم يعد، لم يرد إكمال دراسته و لا أن يدخل معهدا للتّكوين في حرفة أو صنعة، بالطّبع روح الاتكال تلك زيّنت له ما كان بالفعل: أنّ أبويه سينفقان عليه و يدلّلانه، فعلت أمّه أكثر من ذلك، دافعت عنه ووقفت معه في فساده، لكنّها بعد ذلك ندمت، فقد صنعت بخوفها الزّائد عليه دبًّا يأكل بنهم، ينام نوم السّبات، ينتقد الكلّ بلسان سليط شحيح على الخير كلّ لحظة وحين.

الحوار الذي كان، دار بين أبيه أمّه وأخته الكبرى، نيتّهم كانت إقناعه للمرّة الألف بالعدول عن خموله والسّعي في أرض الله علمًا وعملا، لم يرد الأب المشاركة، ولولا ابنته لما جلس، وكذلك زوجته المسكينة، انضمّت وكلّها خوف و ترقّب:

"يا ولدي، ألم يحن وقت استيقاظك؟ أقرانك أخذوا العلم و عملوا، تزوّجوا وأسّسوا بيوتهم و استقلّوا، وأنت لازلت في حضن أمّك لصيق بها لا تفارقها ليل نهار، لقد صرت رجلا الآن، ما بالك ؟".

أكمل أكل الخبز الذي بيده، ثمّ:

"يا أبي، لا ينقصني شيء في هذا القصر، كلّ ما أطلب يحضر، نعيم الحياة هنا لا يوازيه نعيم في الدّنيا، أتريدني أن أفارق كلّ هذا لأتعذّب وأشقى؟ لماذا أتعلّم؟ ماذا أفعل بالعلم سوى أنّي أتحصّل به على شهادة لا تسمن و لا تغني من جوع ... بف".

عادته أن يضيف "بف"في معظم كلامه إذا أراد أن يختم.

"العلم ليس شهادات فقط يا بُنيّ، يا رأس الصّخرة، يا ...".

غضب الأب و ظهر ذلك على وجهه، هدّأته زوجته:

"يا حبيبي، الرّجال يعتمدون على أنفسهم في كسب عيشهم، يؤسّسون الأسر ويستقلّون عن آبائهم و أمّهاتهم، هذه سنّة الحياة، لن تبقى معي أبد الدّهر يا بنيّ".

"لكنّي أريد البقاء معك حتّى ... حتّى بعد هذا الدّهر ... بف بف".

امتلأت عيناه بالدّموع فغضب الأب أكثر واحمرّ وجهه، لكنّه استغفر الله ثمّ أضاف:

"يا "مروان" اتّق الله، أنت الآن في الثّلاثين، عيب عليك أن تبقى هكذا شغلك الشّاغل الأكل و النّوم، ألا تكترث لنفسك؟ انظر كيف صرت ...".

"نعم أنا سمين – يمسح دموعه ثمّ يضحك-".

رأى فيه الأب مدهوشا:

"وتضحك أيضا؟ لقد لقّبوك بـ"المنطاد"، أعجبك هذا؟ نصرف عليك الأموال الطّائلة، وأنت لا تأبه، لا تحسّ، ألا يؤنّبك ضميرك فتقول في نفسك: أتعبتُ أبويّ في الصّغر والكبر، حان وقت ردّ الجميل".

"كلاّ لم يؤنّبني يومًا، بالعكس هذا واجبكما، أنا ابنكما، أنجبتماني وعليكما تحمّل هاته المسؤولية".

سكت الأب هنيهة، بصعوبة تحكّم في نفسه، رأى في ابنته ثمّ قال:

"يا ابنتي تكلّمي معه وإلاّ قتلته اللّحظة، أحسّ أنّ معدّل السكّر في دمي قد جاوز الخمس غرامات، سأذهب، لن أبقى هنا، إن مكثت سأدخل في غيبوبة".

"حسنًا تفعل يا أبي، اذهب اذهب، فوراءك أعمال كثيرة لإنجازها ... بف".

رأى الأب في ولده وكلّه رغبة في خنقه ثمّ تعليقه مكان صورة جدّه في غرفة نومه، استغفر للمرّة الثّانية و تركهما و إيّاه، تابعته نظرات زوجته الحزينة:

"هذه نتيجة دلالك: اتركه لا يزال صغيرا، اتركه لا يستطيع فعل هذا الآن، اتركه سيقوم بعمله فيما بعد، حتّى صار كما ترين، وأنا داريتُك فيما قلتِ، كنت مخطئا بالفعل".

صمتت الأم و لم تجب.

تركهم الأب وذهب لشأنه.

"أبوك على حقّ يا أخي، آن أوان تحمّلك المسؤوليّة".

"أيُّ مسؤوليّة ؟".

"عن ماذا كنّا نتكلّم منذ قليل يا "مروان"؟ ألم تكن تسمع؟ أم تتعمّد إغضابي أنا أيضا ؟".

"آه ... نعم نعم ... فهمت".

"تمام، وهو كذلك".

"لكنّني أتحمّلها، فأنا أذهب وحدي إلى المرحاض و أنظّف جيّدا بعد أن أتبوّل أو أتغوّط، كذلك ...".

قاطعته أخته:

"لا نتكلّم عن هاته الأمور يا فهيم ... نقصد الدّراسة، العمل، الزّواج، المشاريع المستقبليّة".

"آه ... تتكلّمين عن هاته ... بف".

"الحمد لله".

"من مشاريعي المستقبليّة أن آكل ديكًا روميًّا وحدي، وهذا تحدٍّ في ذاته صعب".

"يعني تفكّر فقط في بطنك ؟".

"وأن أنام ثلاثة أيّام تباعًا، دون أن أستيقظ، هذا ليس له علاقة بالأكل".

"يعني أكل و نوم".

"وماذا يفعل الإنسان في حياته غير أنّه يأكل وينام؟ حتّى العمّال والموظّفون يعملون لأجل أن يكسبوا رزقهم و يأكلوا، و بعدها ليعملوا من جديد وبنشاط عليهم أن يناموا، أنا فقط اختصرت المسافة فآكل وأنام دون أن أتعلّم أو أعمل".

"والزّواج ؟".

"ما به ؟".

"ألا تريد أن تتزوّج بامرأة يطمئنّ إليها قلبك؟ ".

"قلبي مطمئنّ يا أختاه، أصلا ماذا أفعل بالمرأة التي سأتزوّج بها؟ والله سؤال راودني كثيرا و لم أجد له إجابة، لماذا يتزوّج البشر؟ بف بف ".

"يتزوج الرّجل من المرأة لكي يلعب معها "الدّومينو"، أعطيك نصيحة؟ لا تفعل بها شيئا يا أخي، فقط ضعها في أحد زوايا القصر كتمثال أو مزهريّة".

"لدينا الكثير من التّماثيل والمزهريّات، لا مكان لوضعها فيه، والمسكينة إن أتينا بها ووضعناها هنا أو هناك ألن تتعب من الوقوف؟ وخصوصا ... ألن تجوع ؟".

وضعت الأخت يديها على رأسها و همّت بالخروج:

"أمّي ... استسلمت ... هذا المخلوق ليس له دواء، لا تطيلي معه كثيرا فقلبك لا يتحمّل".

خرجت و تتركه مع أمّه مُحتارة آسفة:

"يا ولدي، أتريد أن تقتلنا؟ أتريد أن نمرض و نموت بسببك ؟".

"لا ... لا أريد".

"إذن لماذا كلّ هذا العناد؟ أحقًّا لا تفهم ما نقوله؟ أعاجز أنت عن إدراك خطورة وضعك المأساويّ ؟".

"ماذا؟ وضعي مأساوي ؟؟؟ اللّعنة بف بف".

"بل أكثر من مأساويّ، عليك أن تكون مسؤولا من اليوم فصاعدًا، عليك أن تبرهن أنّك رجل بحقّ، قم بأمر يخرجك من قوقعتك هاته، صحيح أنّه خطئي، دلّلتك في صغرك و حتّى في كبرك، أكثر من اللاّزم، لكنّنا تكلّمنا

معك جميعا مرارا وتكرارًا، نصحناك وننصحك كلّ مرّة وحين، لم نستعمل معك طرقًا عنيفة، و إنّما بالرويّة و الكلام المفهوم".

صمت "مروان"... بدا أنّه استوعب ... فهم الرّسالة أخيرًا.

"سأتركك الآن يا بنيّ، فكّر فيما قلناه لك، وحينما تكون مستعدًّا توكّل على الله و كلّمنا فيما تريد إنجازه وتحقيقه، ستجدنا جميعا معك لأجلك".

نهضت، قبّلته على جبينه وتركته مع نفسه يحاورها، حوارًا جديًّا لم يسبق له أن كان:

"ربّما معهم حقّ، آن أوان أن أحمل على كاهلي هاته المسؤولية التي تكلّموا عنها، لست مستعدًّا لها في الحقيقة، ينتابني خوف مما يخفيه المستقبل لي، طيلة حياتي وأنا آكل وأنام، ألعب و أتسلّى، لم أقم بعمل قطّ، كيف أكون رجلا يُعتمد عليه يا ترى ؟".

فكّر هنيهة ثمّ انتابته فكرة، فكرة بسرعة سكنت عقله و لم تغادره:

"ماذا لو ... ماذا لو فكّرت بمشروع فريد من نوعه يجعلني مشهورا؟ في بقاع الأرض معروفا؟ سيعترف بيَ الكلّ، لن أكون بعدها ذاك السّمين الذي لا ينفع في شيء، سأمحو إلى الأبد لقب "المنطاد"الذي أتى على سمعتي وكرامتي، لكن ماذا سيكون؟ ما الذي يمكنني فعله حتّى أبهر الجميع ؟".

بقي يفكّر في الأمر أسبوعا كاملا، و هو يقلّب الأمر على جوانبه، لكنّه وللأسف لم يهتدِ إلى الفكرة التي بحث عنها ليل نهار في تلافيف عقله الصّغير، فقرّر بسرعة الاستسلام للأمر الواقع ويعود لسابق عهده، إلى الأكل والنّوم دون أن يهتمّ، عاد لروتينه المريح، إلى أن فتح له القدر أبواب الملاقاة مع صديقيه اللّذان افتقدهما ولم يراهما منذ سنوات، هاته الملاقاة أعادت إحياء الرّغبة في نفسه، الرّغبة في ترك البصمة الفارقة بين الإنجازات الإنسانية، هكذا إن شاطرهما رغبته الملحّة، وبمساعدتهما، ربّما يصير حلمه حقيقة، فلا شيء مستحيل مع الإرادة كما يُقال ...

الفصل الثّالث: عصام

على أطراف المدينة تترامى بيوت قصديريّة كثيرة، ملتصقة ببعضها، تجري بينها سواقٍ من مياه الصّرف القذرة، الأطفال هنا يلعبون وسط هذا العفن بمرح، أهلهم لا يدرون إن كانوا بخير أم لا، يعيشون حياة الأدغال، كلّ الآفات الاجتماعية هنا: الفقر، البطالة، الأمراض بشتّى أنواعها، السّرقة، وكلّ ما جال بالخاطر وكان قبيحا مُستقبحًا هو هنا موجود ...

في زاوية بعيدة من هذا الحيّ القصديريّ بيت صغير تسكنه عجوز هرمة شمطاء سليطة اللّسان قبيحة القول و الفعل، هاته العجوز وبعد أن توفّي زوجها بمرض صدريّ وجدت نفسها وحيدة، فقد تخلّى عنها أبناؤها جميعا، اقتسموا إرث أبيهم وظلموها فيه فطردوها من البيت الذي جمعهم منذ الصّغر، الآن وجدت نفسها تتسوّل وتلعن النّاس على ما أصابها، بقيت على تلك الحال لسنة أو سنتين، إلى أن التقت طفلا ملقًا في إحدى الحدائق العامّة، رغم فساد سيرتها و منطقها إلاّ أنّ هذا الطّفل الصّغير البريء أيقظ فيها شعور الأمومة الذي افتقدته، فقرّرت أن تربّيه على يدها ويكون لها ولدا يعوّض من كانت تحسبهم أبناءها ... فلذّات كبدها.

روى الولد قصّته للعجوز، اسمه "عصام"، طردته زوجة أبيه بعد أن توفّيت أمّه، لم يعارض أبوه ذلك بل وقف إلى جانب زوجته، فوجد المسكين نفسه في الشّارع لا حول له ولا قوّة وهو في السّابعة من العمر، أشفقت العجوز

عليه أيّما إشفاق، فانتهى الأمر إلى أن جعلت لنفسها بيتًا قصديريًّا بمعاونة جماعة من الشّباب، عاشت فيه والولد، بل أكثر من ذلك، جاهدت نفسها وتمكّنت من إدخال "عصام"المدرسة لمزاولة تعليمه بعد أن غاب لأشهر بسبب تلك المشاكل، غير أنّ الأمر كان صعبًا بالنّسبة لعجوز قاربت الثّمانين، فلا دخل ثابت يقيهما الجوع والعري إلاّ مال التسوّل الذي كانت تحترفه، فصار مصدر الرّزق الذي تعتمد عليه لتعيش ويعيش.

ولأنّ الحرفة يرثها الابن عن مُورِّثه، أورثتها العجوز بدورها لـ"عصام"ابنها الذي تبنّته: بعد أن ينهيَ دوامه في المدرسة يذهب ليأخذ مكانًا "استراتيجيًّا"قرب مقهى أو مسجد أو أيّ مكان اجتمع فيه النّاس، يستلطف النّاس بكلمات حفظها عنها ليؤثّر في النّفوس و تلين له القلوب، فتدفع بالأيادي لتنغمس في الجيوب وتخرج الكنوز التي يرومها الولد، نصب عينيه من كانوا ميسوري الحال، يبقى كذلك يصول و يجول في الشّوارع و الأزقّة، بل يطرق أبواب البيوت ليسأل النّاس، حتّى بات مشهورا معروفا بـ"المتسوّل"، وهذا ما أثّر عليه سلبًا خصوصا في المدرسة التي كان فيها، فقد صار موضوع تهكّم، بات زملاؤه يتبعونه ويهزؤون به، ما أقلقه كثيرا وأزعجه، فتكلّم في الأمر مع العجوز لتردّ غاضبة:

"ما الذي دهاك يا "عصام"؟ أتريد التوقّف عن التسوّل و هو الذي يدرّ علينا المال و به نعيش؟ أتدرك ماذا تقول ؟".

"لكن يا أمّي مللت، و الله مللت من استهزاء زملائي في المدرسة بي، ينادوني بـ "المتسوّل"".

"جميل ... و ما الضّير في ذلك؟ أنت بالفعل متسوّل".

"لكنّه مستقبح لدى الكلّ، أنت الوحيدة في هذا العالم و الله أعلم من يرى أنّه أمر عاديّ".

زاد غضب العجوز فصرخت:

"خسئت، لو كنت بالفعل تفقه "علم التسوّل"لما قلت ما قلته، بهذه الحرفة بنى الرّجال قصورا، لا تستهن أبدا بما لديك، إنّها مفتاح الغنى ولو بعد حين".

"لم تعد لي كرامة يا عجوز السّوء، أحسّ وكأنّي أخدع النّاس وأسرقهم كما فعلت وتفعلين لسنوات، أريد أن أقوم بعمل آخر، أريد أن أسترزق بعمل يحفظ كرامتي".

"وما الذي تريد القيام به يا ولدي العزيز ؟".

"لا أدري، حرفة نافعة، تخرجنا ممّا نحن فيه من فقر و جوع".

"وكيف ذلك ؟".

"أبحث كما يفعل الكلّ".

"ومن يقبل مراهقا في الرّابعة عشرة من عمره؟ ولا تنسى أنّك تدرس أيضا".

"أبحث عن عمل بنصف يوم".

"ألا تعمل الآن بنصف يوم ؟".

"لكن هذا تسوّل و ليس بعمل".

قفزت العجوز بخفّة على "عصام"، تعلّقت به و عضّته من كتفه فصرخ المسكين، تركته يتلوّى من الألم:

"حتّى الطّبيب في عيادته لن يستطيع مضاهاة ما يقبضه متسوّل في سُويعات، أنت في بداية مشوارك التسوُليّ، عليك بالصّبر والجلد فلا شيء يتحقّق بين ليلة وضحاها، ليس هذا بالسّحر، وإنّما بالخبرة والتّجربة".

"لكن يا أمّي أريد أن أكون غنيًّا، أريد أن أملك القصور و السيّارات، أريد أن أملك المال الذي لا يفنى، وأنت تقولين لي صبر وجلد؟ في هذا المكان؟ وفي هاته الظّروف؟ أحسّ وكأنّي جرذ قذر".

"اليوم تحسّ و كأنّك جرذ، غدا كأنّك قط، بعد غد كأنّك كلب، وهكذا إلى أن تصير إنسانًا ومليونيرا أيضا، سيأتي عليك زمن تتذكّر فيه ما قلته".

"مللت هاته الحياة".

"بسم الله، لازلت في بداية المشوار".

"يعني أبقى على ما أنا عليه من ذلّ ومهانة، ومع الخبرة والتّجربة يتحسّن الوضع ويتغيّر الحال إلى ما هو أحسن أليس كذلك ؟".

فرحت العجوز وردتّ:

"تماما كما قلت، وهو كذلك".

"إذن لماذا لم يتغيّر حالك أنت وأنت تحترفين التسوّل لسنوات عديدة؟ لم أفهم... لماذا يا ترى ؟"

صمتت العجوز و لم تجب.

"التّجاعيد أكلت وجهك و السّواد صبغك فلا تظهرين في الظّلام ولا أميّزك عن الجماد إلاّ بشعرك الأبيض المكسور، ملابسك الرثّة ترتدينها لسنوات حتّى أنّها قصُرت إلى ركبتيك من شدّة التّرقيع، حالي ليس بعيدا عن حالك وأنا لم أبلغ بعد الخامسة عشرة، لابدّ وأنّها لعنة المتسوّلين أو دعاء الصّالحين تحقّق فيك وفيّ".

غضبت أشدّ الغضب و قالت:

"اشتقت لعضّة أخرى ربّما ؟".

"لم يبق فيك شيء متماسك إلاّ أسنانك سبحان الله".

نهضت بسرعة وجرت خلف "عصام"الذي هرب منها، رمته بما أتى في يدها من أوانٍ معدنية، خرج من هذا البيت القصديريّ المهلهل صارخا:

"سأصير ملياردیرا وليس مليونيرا، أتسمعين؟ التسوّل تركته لك".

هذا المشهد تكرّر كثيرا حتّى بات عادة، غير أنّ الأمر ينتهي دوما بعودة الولد إلى بيته و أمّه، بيده بعض الدّنانير التي جمعها من ... التسوّل.

قهر الزّمن والظّروف جعلت من "عصام"يثني رقبته ويتسوّل كما أمرته العجوز رغما عنه، هو لا يملك حلاًّ آخر الآن.

مرّت السّنوات بسرعة، وفي الثّالثة ثانوي، السّنة التي ترك فيها الدّراسة، توفيت العجوز وتركته وحده يعاني أهوال الحياة، فحزن حزنا شديدا رغم أنّ علاقته بها لم تكن دوما طيّبة ...

لم ينس فضلها الكبير عليه، فقد كانت هنا حاضرة في الوقت الذي تخلّى عنه أبوه، وهي التي جعلت منه ما هو عليه الآن، وخصوصا، هي التي حرصت أن يدرس رغم إيمانها بأنّ التسوّل هو طريق النّجاح والفلاح ...

ربّما في عميق نفسها لم تكن متأكّدة من ذلك، والأمر الذي لا يمكن أن يختلف فيه اثنان هو أنّ المستوى العلمي والدّراسيّ يضمنان سبيلا نحو عمل شريف يتّقي به الإنسان شرّ النّوائب ...

كانت توجّهه للدراسة دون أن تنقص من قيمة "التسوّل"والتي هي -في نظرها- الحرفة المرجوّة لابنها بالتبنّي إن خانته الأقدار.

أدرك "عصام"ذلك متأخّرا، غير أنّه لم يأبه لذلك، ما أهمّه بالفعل هو كيف يصير ثريًّا، كيف يملك الأملاك فلا يخشى بعد ذلك الفقر والحاجة، ما يريده هو المال، الكثير منه، القصور والشّركات والسيّارات، يريد ذلك ويحلم به، بل صار هذا الحلم هاجسًا يعيش معه، تملّكه وسيطر عليه، بات يستيقظ و ينام على أمل أن يتحقّق.

لم ينقص "عصام"الذّكاء والفطنة، لكنّه وضع نصب عينيه الدّينار والدّرهم فصار عبدا لهما لا يفكّر في شيء غيرهما، و لا يهتمّ لأمر سواهما، بات منقادا، يشتمّ رائحة معدنيْهما أينما وجّه وجهه، يتقفّى آثارهما ويتتبّع سبيلهما في دورة الحياة بين الجيوب وفي الخزائن، وفي أيّ مكان ظهر فيهما

ظلّهما، كذلك يستحيل من كانت ميزته الذّكاء والفطنة إلى الغباء والبلاهة.

في أيّام بحثه عن عمل، لاقاه القدر بصديقيه الحميميْن ... صديقان معهما المحال صار حقيقة.

من الصّفر إلى المليار ... لا شيء مستحيل.

الفصل الرّابع: يوم التقى المجانين

لا أفضل من لُقيا الرفاق والأصدقاء، خصوصا إن فرّق الزّمن بينهم سنوات ليست بالقليلة، فيشتاق القلب وترنو العين رؤيتهم من جديد، وهذا ما قامت به ثانوية "المجد"، احتفاليّة خاصّة تجمع تلاميذ قسم أريد تكريمهم، هي فرصة للمّ شمل الزّملاء وأساتذتهم و التعرّف على أحوالهم بعد سنوات مرّت.

في قاعة الاجتماعات، وبعد أخذ وردّ، وقع الاختيار على قسم اللّغات الأجنبيّة لسنة **2004**، القسم النّهائي، هذا القسم اشتهر آنذاك بالفوضى والشّغب، فقد كانت عناصره مشوّشة تنقصها الجديّة، إلا بعض التّلاميذ الذين كانوا على عهد العلم بهم.

لم يلق اقتراح المدير ترحيبا من الأسرة التّربويّة، فتكريم هؤلاء تشجيع للرّداءة و تحفيز على الاستهتار و الاستهزاء، غير أنّه ألحّ و قرّر:

"هذا هو القسم الوحيد الذي لم نلتفت إليه بالذّكرى والتّكريم، فعلا كانوا مشوّشين يبثّون الفوضى في كلّ مكان، غير أنّهم اليوم رجال ونساء بالغون، قد فات زمن الطّيش و بلغوا من العمر ما رست الحكمة في عقولهم، هذا وإن لم يكن الأمر كذلك فمن المستحيل أن يقوموا بأعمال شغب أو يعيدوا أيّامهم تلك ويستذكروها في يوم تكريمهم، هذا محال، مهما كانوا فقد مرّوا من هنا، تعلّموا هنا، و علينا تذكّرهم كما تذكّرنا من سبقوهم".

تقدّم أحد الأساتذة من المدير مذكّرا إيّاه:

"لكن أستاذ ... أتعلم من كان يدرس في هذا القسم تلك السّنة ؟".

"في **2004**؟ أو تظنّني حاسوبا يا أستاذ ؟"

"الثّلاثي المجنون".

اهتزّت أبدان الأساتذة الحاضرين حينها، رأى بعضهم في بعض ...

"الثّلاثي المجنون؟ ذكّرني بهم".

""جليل صاوي"، "مروان دينار"، و "عصام كافي"... أتتذكّرهم أستاذ ؟".

رأى المدير في الأستاذ و أطال تأمّله:

"الأمر لا يبشّر بخير، هاته الأسماء تشعرني بخطر قادم، أحسّ بتوتّر وخوف أيضا".

"التّلميذ الذي أحرج مدير التّربية في زيارته لثانويّتنا، فوقف حين إلقاء خطبته على التّلاميذ الحاضرين وقد كنتم آنذاك حاضرين مع الطّاقم، وقف وصرخ بأعلى صوته:

"سروالك مثقوب يا هذا".

نفسه الذي سرق أوراق الاختبارات من السيّدة "أنوار" لتُلغِيَ اختبار الرّياضيّات، كلّ ذلك لأنه لم يكن موفّقا في إجاباته، ثمّ حرقها في المرحاض.

هو الذي وضع مساميرا في مقعد الأستاذ "بشير"... وتعلم ماذا حصل له المسكين.

بسببه دخل أستاذ التّربية البدنيّة في غيبوبة عشرة أيّام، هذا العبقريّ لم يجد طريقة لإخراج طاقته السلبيّة إلاّ بقذف كرة بكلّ ما أوتيَ من قُوّة عشوائيًّا، صارخا في السّاحة غير آبه بأحد:

"الكابتن ماجد ... عاااااد من جديد".

فارتطمت برأس الأستاذ وأردته أرضا، هرب بعدها حينما حاولنا التكلّم معه في الموضوع.

نفسه الذي خلط المواد الكيميائية في المخبر وكاد يودي بالعديد من التّلاميذ إلى الهلاك، أتتذكّر ذاك الغاز الأزرق الذي عمّ المكان؟ كان غازا سامًّا.

وهذا غيض من فيض ...

"تذكّرته نعم ... تذكّرته".

"ذاك جليل الصّاوي، الملقّب بـــ"المجنون"، الثّاني ... مروان دينار".

ينتفض المدير و يقاطعه:

""المنطاد"؟".

"هو بشحمه و لحمه".

شخصت أبصار الحاضرين ... اهتزّوا للمرّة الثّانية...

"لا أنسى اليوم الذي كرّمنا فيه الأستاذ "محمود"قبيل تقاعده، لم أحسّ يوما بالإحراج كما ذاك اليوم، كلّ المأكولات والحلويّات وحتّى المشروبات اختفت... لم تبق شيء، سوى الصّحون والكؤوس الفارغة، التهم هذا "الغول"كلّ شيء في لمح البصر... ودون أن يراه أحد".

عقّب الأستاذ على كلام المدير:

"رأيته خارجا من القاعة متسلّلا حاملا بين يديه كيسًا خلط فيه كلّ المأكولات مرّة واحدة ".

أضاف أستاذ آخر:

"إن أردناه فلا نجده أبدا في القسم، بل دائمًا في زاوية من زوايا المطعم يأكل بنهم، كان بدينا بالفعل، غير أنّه في هروبه سريع سرعة الغزال".

وأستاذة:

"مرّة دخلت قاعتي لأصحّح بعض الأوراق، لم تكن لي مع تلاميذي حصّة، أنرت القسم وإذا به نائما على سطح مكتبي، اندهشت، قلت في نفسي ماذا يفعل هذا في قسمي نائما هنا؟ يشخر شخير من لن يستيقظ من نومه، فجأة اهتزّ، تحرّك، لا أخفيكم خفت منه، فهو بجثّته الضخمة إن تعرّض لأحد فتلك نهايته".

"ليس عنيفا، بالعكس تماما هو خوّاف ".

"رغم ذلك أطفأت النور وخرجت وغلقت الباب ورائي حتّى لا أزعجه ويكمل نومه في هدوء".

"أهكذا تكون ردّة فعل أستاذ محترم ؟"

"يا أستاذ إن استيقظ وكان جائعا سيلتهمني، يبتلعني، هذا "الغول" فتنة لعن الله من أيقظها".

صمت المدير هنيهة ثمّ عقّب:

"لم يسلم منه أحد، حتّى أنا خطف غذائي حين غفلة منّي، لا بدّ و أنّه فعلها معكم".

أومأ الجميع برؤوسهم : نعم.

أضاف:

"تذكّرت الثّالث، كان أسوأهم والعياذ بالله، لم يترك أحدا إلاّ سرقه، لصّ خطير".

صرخ الجميع بصوت واحد: "المتسوّل".

"لقد عانينا الأمرّين معه، سرق أدوات زملائه، سرق الأساتذة، الكتب، الكراريس، المحافظ، الحقائب، لم يسلم منه أحد، سرق منّي مال بيع الكتب المدرسية وقد كان في مكتبي، حتّى مصابيح القاعات وزجاج النّوافذ وبراغي الأبواب، بل حتّى البلاط اقتلعه وسرقه، ليعيد بيعه، رأيته بأمّ عيني وهو يبيع محفظتي الجلديّة، وحينما واجهته أنا المدير الذي من المفروض أن يتهذّب في حضرتي ويخاف من وعيدي ضحك ثمّ هرب ".

صمت الأساتذة الحاضرون، نظروا في المدير آملين أن يقرّر إلغاء الحفل، أو على الأقل عدم دعوة هؤلاء الثلاثة، فإن حضروا واجتمعوا ستكون الطّامة الكبرى.

مرّر المدير سبّابته على شاربه الذي خاطه الشّيب و هو يفكّر، نزع نظّاراته و وضعها على الطّاولة، نظر في أساتذته واحدا واحدا، نظرة حادّة، نظرة تحدٍّ، إنّها لحظة الحقيقة، فعل ذلك كلّما حسم أمرا:

"الحفل سيكون بإذن الله و في الموعد".

انقبضت الأنفاس ...

"و سندعوهم ... هؤلاء الثّلاثة".

هنا ينتفض الأستاذة كلّهم، و ينطق الأستاذ الذي ذكّره بهم:

"لكن يا أستاذ ألا تخشى أن يحدث ما حدث في الماضي ويتكرّر في الحفل؟ ثلاثتهم سيكونون هنا، لم نصدّق أنّنا تخلّصنا منهم حتّى يعودوا ويعيدوا مجدهم الأوّل؟ سيكون آخر يوم لنا في هاته الثّانويّة بالتّأكيد".

"لن يكون ذلك بإذن الله، صحيح أنّهم من شرّ من درسوا في ثانويّتنا، حتّى أولياؤهم لم يستطيعوا فعل شيء لردعهم، لكن إن لم ندعُهم و انكشف أمر غيابهم عن الحفل فستسوء سمعة ثانويّتنا ونُتّهم بالمحاباة والتّمييز، وأنتم جميعا تعرفون أولياء التّلاميذ، هم قادرون على تلفيق التّهم الباطلة ورمينا بها في أيّ لحظة وهذا ما ينتظرون، ولربّما تصل الأخبار إلى المفتشيّة أو الوزارة، و حينها يكبر المشكل و يصعب احتواؤه، لذا علينا أن

نتعقّل و نحلّ الموضوع بحكمة و تروٍّ، دون اللُّجوء إلى طرق أخرى تردينا أسفل سافلين".

كلام المدير أكثر من مقنع، سكت الجميع و وافقوا.

"المشكلة في "عصام كافي"، فكما تعلمون كان يقطن بيتا قصديريًّا دون عنوان طرف المدينة، سأرسل دعوة إليه خاصّة مع الحارس، يعطيها له يدًا بيد، باقي الدّعوات سنرسلها عبر البريد السّريع، ولندعُ الله تعالى أن يكونوا قد غيّروا مقرّ سكناهم جميعا، أو رحلوا، هكذا ستكون الظّروف القاهرة هي الحائلة بيننا و بينهم".

تنهّد الحاضرون وتمنّوْا ما تمنّى مديرهم، فليس من السّهل أبدا أن تستضيف هؤلاء حتّى و إن مرّت على شرورهم أعوام.

عاد القدر و تدخّل، ليحقّق أمرا كان مفعولا، وصلت الدّعوات لكلّ مدعوّ، بعد قراءتها استبشر ثلاثتهم و عاد أملهم في التّلاقي من جديد، هاته هي الفرصة التي بحث عنها كلّ واحد فيهم، لربّما يجد في صاحبيه المفقوديْن بابا مفتوحا نحو تحقيق مشروع القرن، المشروع الذي فكّر فيه كلّ "مجنون".

مرّت الأيّام سريعا ...

و كان يوم الحفل، يوم مميّز بحقّ، اجتمع شمل الأصدقاء و قد كوّن كلّ واحد فيهم عائلته، حقّق حلمه، البعض رحلوا و البعض توفّاهم الله، التقى الأساتذة الذين بلغوا من العمر عتيًّا بتلاميذهم القدامى الذين صاروا رجالا ونساءً بأولادهم، في جوٍّ من الفرحة والبهجة تسلّل خوف ورعب من الآتي، ممّا سيحصل لحظة التقاء "المجانين الثّلاثة"...

وقد حضروا، وصلوا، ودخلوا الثّانوية دون أن يلمح أحدهم الآخر، بدأ كلّ واحد فيهم يحوم ويدور بحثا عن الثّاني، دون أن يسألوا عن المدير أو الأساتذة، دون تفقّد زملاءهم، لم يعنهم حضور الآخرين شيئا، وإنّما بحث أحدهم عن الآخر دون الانتباه لنظرات الواقفين ...

في لحظة من اللّحظات، بينما كان "جليل" يقلب بصره هنا وهناك في رحلة صيده إذا به يرى بطنا ضخمًا يهتزّ يمينا ويسارًا، يكاد يلامس الأرض، يرفعه صاحبه بصعوبة، يلهث لهث من شُقّت عليه نفسه و نفدت أنفاسه، لابدّ و أنّه هو، فلا يوجد من رفاق الثّانوية من يملك مثل هذا البطن غير "المنطاد":

"إنّه هو، هو لا شكّ "مرواااااان"... "مرواااان"".

ناداه بأعلى صوته حتّى استدار الجميع ...

انتبه "مروان"لنداء "جليل"الذي أيقظ العديد من الموتى:

"جليل"؟ أهذا أنت ؟".

"نعم أنا هو، تعال يا صديقي لأعانقك".

يسرع كل منهما إلى الآخر وتعانقا، الفرحة كبيرة والسّعادة بلغت مبلغًا أن حمل "مروان"صاحبه و كاد يسقطه.

"اشتقت إليك يا صديقي، مرّت أعوام ولم نلتق، لا زلت سمينا كما عهدتك سبحان الله".

"تلك هي بطاقة تعريفي وأفتخر يا صديقي، كيف حالك أنت ؟".

"في أسوأ حال و الحمد لله، وأنت ؟".

"آكل و أنام، وقليلا ما أنهض"

"نِعم العمل والاجتهاد، أحسنت".

"أحسن الله إليك".

"ألم يحضر "عصام"؟ بحثت عنه و لم أره ".

"كلاّ لم أره، ربّما مات".

وفجأة:

"كلاّ لم أمت أيّها "المنطاد"، ها أنا ذا واقف أمامكما بشحمي و لحمي".

التفتا وإذا بـ"عصام" هنا، انفجر ينبوع الفرح وعمّ السّرور قلوبهم وفاض، تعانق الأصدقاء عناقًا جماعيّا والدّموع منهمرة من أعينهم المبتسمة انهمارًا عجزت فيه عن التوقّف، قد اجتمع شملهم أخيرا، "الثّلاثيّ الخطير".

"كيف وجدتنا يا ترى؟".

"صوتك حينما ناديت "مروانًا"سُمع من الصّين فكيف لا أسمعه أنا ؟".

"تبًّا لك كم أنت نبيه، وتذكّرت نبرة صوتي أيضا ؟".

"ومن لا يتذكّر صوت الحصان؟ صوتك كصوته سبحان الخالِق".

"المهمّ الآن أنّنا التقينا بف بف".

"لازلت على عادتك؟ ألم تتخلّص من إضافة "بف"إلى كلامك ؟".

"كلّما تحمّست أضفتها ".

ضحك ثلاثتهم في جوّ مفعم بالأخوّة والمحبّة، من بعيد المدير يراقب، دعا الله أن لا تتطوّر الأمور لتخرج عن نطاقها، إلى غاية اللّحظة هي تسير على ما يرام، لا مشادّات ولا مشاكل، الكلّ منشغل بزميل يتحدّث معه عن

الماضي، يتذكّره وإيّاه و يعيد شريط أحداثه الرّاسخة دوما في الذّاكرة، تسمع بين الحين و الآخر:

"يا سلام بماذا ذكّرتنا"، "كانت أروع الأيّام"، "ليت تلك الأيّام تعود"...

و كأنّ الجميع يريد عيش الماضي بأحداثه مرّة أخرى عوض أن يجرّب أمورا أخرى جديدة ...

"اليوم يوم مبارك، التقينا نحن العصبة المُهابة، علينا أن نفخر بما أنجزناه سابقًا، بل علينا الآن أن نبرهن على وجودنا مرّة أخرى، فلازلنا كما كنّا وأكثر، أليس كذلك يا شباب ؟".

"بدأت أجوع".

"تماما كما قلتَ يا "جليل"، على نجمنا أن يظهر، لن نترك الزّمن يطوي صفحات كتابه دون مراجعة".

فرح "جليل"بقول "عصام"، أضاف قائلا:

"لو نحقّق إنجازًا يترك أسماءنا مذكورة على مرّ التّاريخ، ما رأيكما ؟".

صمتا ثمّ:

"لا طالما احتقرنا الآخرون ونبذونا، في الابتدائية أتتذكّران؟ لم نفعل شيئا سوى أنّنا كسرنا صنابير الماء وبعض الكراسي والطّاولات، فصرنا مشوّشين مكروهين"تذكّر" مروان"تلك الوقائع مُستاءً.

"نعم يا "منطاد"أتذكّر، حتّى في المتوسّطة، يوم أشعلنا النّار في مخزن المؤن، لم يفهموا يومها دعاباتنا اللّطيفة، سبحان الله"يعقّب "عصام"على قوله.

أضاف جليل:

"في الثّانوية نفس الشيء، حتّى بعد خروجنا منها و خوضنا غمار الحياة التي وقفت ضدّنا، لم يفهم العالم بعد أنّنا نادرون و مميّزون".

"صار من اللاّزم أن يعرفنا الجميع، أن يدرك الكلّ من نكون، وجب على الجميع احترامنا و تقديرنا، سنقنعهم رغما عنهم، سنجعلهم صاغرين أمام عبقريتنا الفذّة يا "جليل"، أنا معك، موافق على فكرتك، ولي رأي في الموضوع أيضا، ما رأيك أنت يا "مروان"؟ ".

"معكما طالما أكلت، كذلك أريد أن يعترف بي كلّ قريب و بعيد، سنكون مشهورين، فليكن لدينا مشروع كما اقترح "جليل"أساسه خطّة محكمة ترى النّور نُذهل بها العالم أجمع".

"هكذا أريدكم يا رفاق، نحن أصحاب همّة وحزم، هذا المجتمع الظّالم تمادى في عزلنا حتّى صرنا دون قيمة، أولج في السّخرية منّا حتّى صرنا على كلّ لسان جهلةً أغبياء، فهل يرضيكم ما وقع بكم؟ أتستسلمون لما خيط لكم من مكائد ؟".

"أبدا ... "يرفع "مروان"و "عصام"صوتيْهما مرّة واحدة.

ارتعشوا جميعا من الحماس وأجمعوا رأيهم على أن يلتقوا في يوم حدّدوا ميعاده و في مكان يلتقون فيه، محور هذا الاجتماع المشروع الجهنّميّ الذي سيكون بالاتفاق بينهم، و الذي سيجعلهم قادة جيلهم و عظماء عصرهم.

خرج ثلاثتهم من الثّانوية، فتنفّس الكلّ الصّعداء، ارتاح الجميع منهم فلو أطالوا لربّما وقعت الفتنة وعمّت الفوضى.

رأى المدير ظِلالهم وهي تنسلّ خارج باب الثّانوية، ففرح فرحًا لا يوصف وحمد الله على النّعمة و شكره:

"الحمد لله الذي نجّانا منهم، اللّهم لا يرجعون إلى هنا أبدا".

فأمّن الجمع الحاضرون بعد هاته الدّعوة.

هذه أماني القوم المساكين، غير أنّ القدر الذي أسرّ أسراره إلى حين أخفى مفاجآت لم تخطر على بال هؤلاء، ولا على بال إنسان حتّى...

الفصل الخامس: الجمهوريّة

اتّفق "المجانين"على أن يكون الاجتماع في مقهى "السّابعة"، هو مقهى كئيب مظلم، ذو رائحة قذرة، في أحد أزقّة حيّ شعبيّ مشهور بعصاباته الخطيرة.

جدران هذا المقهى مهلهلة تكاد تستلقي على الأرض، مشقوقة لا تكاد تجد قدر أصبع صحيح، حتّى اسم المقهى منقوش على خشب نخرته الحشرات فكاد يسقط من فوق الباب المُقوّس، تلك النّوافذ الصغيرة مُسيّجة، عليها تراكم الغبار حملته شباك العنكبوت متدلّية، وفوق بعضها أعشاش حمام، حين دخولك تُفاجأ بالمنظر، كلّ ما يحيط بك مصنوع من خشب، الكراسي والطّاولات وحتّى الأرضيّة، المكان مظلم، المصابيح لا تنير هاته القاعة كما يجب، صفراء رخيصة، يمكنك أن ترى لعب حبّات الغبار في الهواء و أنت واقف قبالة شعاع ضوء بات يحتضر، حينما تمشي تسمع صرير الأبواب القديمة حين الفتح والغلق، صوت احتكاك الخشب بالخشب، على السّقف مروحة واحدة لا تعمل، هناك في الزّاوية يعمل صاحب المقهى ومساعده، نعم عاملان اثنان فقط، يكفي هذا العدد نظرا لغياب الزّبائن طيلة السّنة، سمعة هذا المقهى سيّئة لغياب النّظافة ولأنّه كان حانة في العهد الاستعماري.

كذلك وقعت حادثة يعرفها الصّغير قبل الكبير، و الشاب قبل الشّيخ، ففيما يروي الرّاوي أنّه حصل شجار بين أحد روّاد الحانة و زبون آخر أدّى إلى

مقتل أحدهما هنا بالذّات، قيل أنّ شبحه يحوم بعد السّابعة ليلا يبحث عن الانتقام، لهذا سُمي المقهى بـ "مقهى السّابعة"لأن أبوابه تغلق في هذا الوقت.

حكايا الأشباح لا يصدّقها معتوه، لكن تداول النّاس لهاته الأخبار ونشرها بينهم، إضافة كلّ ناقل كلمة من هنا وهناك لجعل القصّة أكثر رعبا وتشويقا جعلت من حبّة القصّة قبّة، فاستحالت أسطورة، ما ساهم في هروب الجميع من هذا المقهى و بقاء صاحبه المسكين وحده يعمل مع رفيق دربه و الذي يساعده في إدارته.

هناك في زاوية بعيدة يجلس "جليل"رفقة "عصام"في انتظار "مروان"الذي تأخّر قليلا عن الموعد، في هذا الوقت و هما يرتشفان فناجين من القهوة العفنة يتبادلا أطراف الحديث ريثما يلتحق المتأخّر:

"لماذا اقترحت علينا أن نلتقيَ في هذا المكان يا "جليل"؟ أحسّ وكأنّني جالس في أحد قنوات مياه الصّرف".

"وهو المطلوب، هذا المكان ليس في مثل نجاسته وعفنه مكان، إضافة إلى أسطورة "قتيل السّابعة"التي جعلت الكلّ ينفضّ من هنا، عجبي أنّ صاحب المقهى و صاحبه مصرّان على البقاء و الاستمرار في العمل، على كلٍّ، ما يهمّنا هو وجودنا نحن الثّلاثة فقط، هكذا سيبقى حديثنا عن المشروع سرًّا بيننا،

كما تعلم الأعين و الآذان في كلّ مكان، حتّى وأنت وحدك داخل المرحاض لا تسلم من تتبّع "العسس".

"لكن صاحب المقهى هنا وكذلك معاونه، ألن يشكّا؟ ".

رأى "جليل"في "عصام" وقال:

"منذ متى وأنت تفكّر ؟".

"فقط أدليت بوجهة نظري".

"لن يهتمّا لأمرنا إن تحدّثنا بصوت منخفض".

"نعم قل هذا للـ"المنطاد"حينما يأتي".

لحظتها وصل "مروان"و نزل سريعا من سيّارة "الليموزين"التي نقلته، دخل المقهى وصرخ بأعلى صوته:

"اللّعنة ما هذا المكان القذر ؟".

قام "جليل"ولوّح لـ"مروان"، أشار إليه بأن يصمت و يلتحق بهما دون إحداث جلبة، ففعل ثمّ جلس، غير أنّ الكرسيّ لم يكن مريحا:

"تبًّا ماذا يحدث أيضا ؟".

"يا أخي أوراكك كبيرة لا تكفي لكرسيّ مثل هذا".

"اسمع... خذ كرسيًّا ثانيا واجعل كلّ واحد لورك، فأنت يا صاحبي لا يكفيك شيء".

"حسنا حسنا... لا داع لتذكيري كلّ مرّة بسُمنتي".

فعل ما نصحه به وجلس:

"لماذا اخترنا هذا المرحاض العمومي؟ الرّوائح الكريهة في كلّ مكان، ستغضب أمّي إن علمت أنّني هنا".

"لن تغضب ما لم تفتح فمك الكبير و تخبرها بكلّ ما سنفعل".

"كلاّ لن أفعل".

"أنصحك أن لا تأكل و لا تشرب شيئا، إلاّ الماء، وإلاّ اليوم مماتك".

غضب "مروان"ورفع صوته معارضا:

"ماذا تقول؟ يعني سأبقى جائعا حتّى ننهيَ هذا الاجتماع الملعون؟ لا مستحيل".

"ستصبر رغم أنفك، لسنا في وليمة، نحن هنا لنتكلّم عن "المشروع"".

"ونتكلّم فيه دون أن آكُل ؟".

"سبحان الذي خلق، ما بك؟ ألهذه الدّرجة جائع ؟".

"حينما أجوع آكُل أو أقتل".

رأى "جليل "في "عصام" ثمّ قال هذا الأخير:

"لن يطول الأمر إن شاء الله".

التفّ بعضهم على بعض وبدؤوا:

"إذن ماذا تقترحان ؟"سأل "جليل".

طال الصّمت ثمّ أجابه "عصام":

"في الحقيقة لا تهمّني طبيعة المشروع هذا ما دام يدرّ عليّ الأموال، فهدفي هو أن أصبح أغنى الأغنياء وأبيّن لكلّ من سوّلت له نفسه ابتزازي أو احتقاري أنّي أنا الأقوى، ستكون بيدي مفاتيح خزائن مال الدّنيا، أفعل ما أشاء كيفما أشاء، لن أترك مكانا إلاّ زرته، ولن أمنع نفسي حظّها من الحياة الرّغيدة، حياة الأحلام اللّذيذة".

ابتسم "جليل":

"وأنت يا "مروان"؟ ما اقتراحك ؟".

"بالنسبة لي أريد أن أظهر على رؤوس الخلق و يكون لي منصب في الدّولة العليّة، أن أصير مشهورا مذكورا على كلّ لسان، أريد أن أشعر بأهميّتي بين النّاس ما دام ذلك لا يتعارض مع دوام راحتي، فكما تعلمان لا أستطيع أن أضحّيَ بأكلي و نومي فهما أعزّ ما أملك، و إن تطلّب الأمر أن أبيع أبي أو أميّ فلا بأس المهمّ أن لا أُصاب فيهما".

"جميل، فهمت ما تريدان، لكنّكما لم تقترحا شيئا ".

"كما قلت لك أريد المال و حسب، فإن كان المشروع بنكا نأخذ منه الأموال متى شئنا فسيكون ممتازا ".

"أرى أن يكون مشروعنا مطعما يقدّم المأكولات ليل نهار، نربح منه ونأكل حتّى الموت".

ضحك "جليل"و ردّ:

"نظرتكما آنيّة بحتة، قاصرة، فكّرتما فقط براحتكما و شهوتكما و تركتما الأهمّ".

"وما الأهمّ يا ترى؟ "يسأل "عصام".

"السّلطة، إنّها السّلطة يا رؤوس الفول السّودانيّ، إن امتلكت القوّة فكلّ ما تحلم به يكون بين يديك: المال، الجاه، المتعة ... كلّ شيء".

"وحتّى الأكل ؟".

"نعم، كلّ ما تريده من صنوفه و أنواعه".

"رائع بف بف".

سأله "عصام":

"لكن كيف نحوزها؟ أنصنعها نحن ؟".

"نعم".

"كيف ؟".

"لا قوّة دون ملك أو سلطان، و لا سلطان دون رعيّة، و لا وجود لكلّ هؤلاء دون ... قولا لي أنتما ... دون ماذا؟ ".

"دون خبز ؟".

"تبًّا لك لا تفكّر إلاّ في بطنك المنفوخ".

"دون مال ؟".

"وأنت عقلك مربوط بجيبك، حياتك فقط دينار و درهم ؟".

"هذا الذي أعرف و هذا الذي أريد ".

"أليس في عقليكما ما هو أنفع ؟".

صمتا و لم يردّا.

"بناء وطن جديد، مستقلّ، نكون نحن فيه حكّاما على أنفسنا كما نريد".

من شدّة دهشة "عصام"فتح فمه و لم يغلقه، وجحظت عينا "مروان" لأوّل مرّة، فلم يُعرف لشكلهما شكل وللونهما لون قبل هاته اللّحظة، أخفتهما تلك الوجنتان الممتلئتان لمدّة، هكذا ظهر الحقّ و بان المستور.

أضاف "جليل":

"ستتحقّق أمانيكما، ستصبح يا "عصام" غنيًّا، فتلك هي عادة الحكّام وصنّاع المصير، من حكم ملك، ومن ملك اغتنى، ستنعم بالرّاحة والطّمأنينة يا "مروان"، ستأكل و تنام على الدّوام، لن تقوم بشيء سوى زيادة حجم ذاك البطن، كذلك هي سيرة من كان قبلك ومن سيأتون بعدك من الحكّام، علينا فقط بناء هذا الوطن وجمع النّاس فيه، بلد جديد يصدح

بمعاني السّلم والحريّة، هذا الذي يبحث عنه الجميع، بعدها سنحصد ما غرسنا وسنحقّق أحلامنا في وقت يسير".

كان اقتراحه مغريًا رغم أنّ تحقيقه صعب على ما يبدو:

"لنقل أنّ ذلك ممكن، فكيف السّبيل إلى ذلك ؟".

سؤال في الصّميم طرحه "عصام"...

"علينا أوّلا اختيار بقعة بعيدة عن أيّ مدينة من مدن هذا البلد، لن تكون بمحاذاة القرى أيضا، بل في مكان معزول تماما، أي في الجنوب".

"في الصّحراء ؟"يسأل "مروان".

"تماما، في الصّحراء، في الخلاء، نأخذ ما نشاء من مساحة، نتوسّع فيها كما يحلو لنا لن يتفطّن إلينا أحد".

"في خمسين درجة تودّ أن يكون لنا بلد ؟".

"لا تتسرّع يا "عصام"، بعد البناء والتّعمير سيصير بلدنا نحن أفضل من هذا البلد الكئيب الذي نعيش فيه، ستكون هناك مكيّفات عملاقة في الطّرق والأزقّة، سواء في المدن أو في الأرياف، لن تحسّ أبدا بالحرارة".

" بلد جديد من أصل بلد موجود، نحن نسرق إذن أليس كذلك ؟".

"هذا أقل ما يمكن أن يكرمنا به، شيء من العطاء بعد المعاناة التي عشناها فيه، سرق منّا كلّ جميل، نحن نسترجع فقط ما كان لنا وضيّعناه".

"معك حقّ، فليكن ما قلته يا "جليل"".

تحمّس "جليل"أكثر ثمّ أضاف:

أوّلا علينا أن نحرص على أن لا يتفطّن لـ "جمهوريّتنا العظمى"أحد حين وضع الأسس الأولى لقيامها، وإلا هدّموا صرحنا العالي، فلا أحد في هذا البلد بنا يبالي، فإذا اشتدّ عودنا و قويت شوكتنا، كان لنا كلام آخر".

"جمهوريتنا العظمى"؟ ألن تكون مملكة؟سلطنة؟ ما معنى أصلا جمهوريّة؟".

"الجمهوريّة يا "مروان"كلمة رنّانة، معناها أن الحكم يعود للجمهور، للشّعب، والرّأي الأوّل والأخير يعود إليه، لكن هذا فقط في الأحلام، أو في الوثائق والمواثيق، لأنه في الحقيقة سنفعل ما نشاء في الشّعب وبالغنائم التي نحوزها منهم".

ضحك "عصام و عقّب على كلامه:

"هدفك أن تنتقم من الكلّ أليس كذلك؟ يبدو أنّ طفولتك كانت صعبة".

"طفولتي وشبابي وكلّ حياتي إلى غاية اللّحظة صعبة".

"يا أخي لو تكلّمُنا وتشرح لنا أكثر عن كيفيّة بناء هذا البلد وكيف سنسيّره فقد أطلت و عاد ليَ الجوع بعد أن نسيته".

اعتدل "جليل"في جلسته ثمّ:

"على بركة الله وإن وافقتم نسمّي جمهوريتنا "جمهوريّة الحريّة العظمى"، يكون أحدنا عليها رئيسا، وثانينا رئيس وزراء، والثالث يكون هو وزير كلّ شيء، فعلى ما يبدو الحكم والسياسة صارت للكل متاحة، والكلّ فيها يتفنّن بفنّه، الصّغير والكبير، وأضيفكم هاته: لا يهمّ من نكون أصلا، المهم فقط أن نظهر وبقوّة".

ردّ عليه "عصام:" فكرة مقبولة، لنا وقت فراغ كبير نملؤه".

قاطعهما "مروان":

"الفكرة خطيرة، وعلينا التّخطيط لها برويّة و التّفكير فيها لمدّة وليس هكذا فقط، أوّلا علينا اختيار قطعة الأرض المناسبة، وهذا وحده يستلزم وقتا، بعدها نبني قصرا حوله البيوت والمنازل، كما قصر الخلافة في بغداد القديمة، بالطّبع ستكون البداية بالعاصمة المجهّزة بأحدث الوسائل و أرقى التّجهيزات، ثمّ ندعو النّاس للالتحاق بنا عن طريق "الفايسبوك"و "تويتر"، وبعدها كلّ شيء سهل ".

تدخّل "جليل":

"سنجعلها حضارة تفوق حضارة الفراعنة والفينيقيين، سنتفوّق على الأوباش والوِندال".

" لكن الأوباش لم تكن لهم حضارة، والوندال أهل حرب وقتل أليس كذلك ؟"يتساءل "عصام"وقد بدأ الشكّ يراوده في الصّحة العقليّة لصديقه.

"المهمّ أنّها ستكون حضارة، لا يهمّ كيف، سنُلقي قوانين وتشريعات كما يفعل هؤلاء الذين يحكمون هذا البلد، وإن لم يعجبنا الأمر سنُغيّر كما يغيّرون، بحسب ما نرغب، بلد بقوانين وتشريعات جديدة لنا نحن الثّلاثة فقط، نحن الأسياد فنحن أحرار، أمّا بالنّسبة لأرض وطننا فلن تكون مساحتها كبيرة، قدر ملعب مثلا".

غضب "مروان": "فقط؟ أهذا هو البلد الذي نريد إقامة أسسه وبناء صرحه؟"

"كبداية ثمّ نرى، لكن يجب أن تتوسط السّاحة الكبرى فيه سارية العلم".

" وكيف سيكون العلم هذا؟ ".

"ما رأيك أنت يا "مروان"؟".

"دجاجة تبيض"،

"و لماذا هذا الاختيار ؟".

"لا أدري، أوّل فكرة ساورتني هو طبق الدّجاج المحمّر بالبيض المسلوق".

"ألف لعنة عليك، و أنت يا ...".

فاجأهم النّادل الذي وقف على رؤوسهم على حين غفلة منهم:

"أعتذر على المقاطعة ... سيّدي ... أتريد أن تشرب شيئا؟ أو أن تأكل؟ لاحظت أنّك أتيت متأخرا و لم تتنعّم بمذاق قهوتنا بعد".

اهتزّ "مروان"و أجابه بسرعة:

"و الله قد أتيت في وقتك يا صاحبي، الجوع هلكني و أودّ أن ...".

ركله "عصام من تحت الطّاولة فصمت حينا، اقترب منه و همس:

"أنسيت ما قلناه لك من قبل؟ أتريد أن تموت في هذا العمر؟ قهوتهم كسمّ أسود و هلاليّاتهم كمناجل قاطعة تمزّق حلقك قبل بطنك، اطلب الماء فقط".

غمز له "جليل"حتّى يطلب ما قاله "عصام".

"كوب ماء من فضلك، و بعدها سنرى"... قالها "مروان"حزينا مخنوقا.

"حاضر سيّدي، خذ راحتك".

عاد التّادل و على وجهه ابتسامة غريبة، على كلٍّ، ما همّ الأصدقاء الآن هو إكمال الأسس الأولى لمشروع القرن:

"ما رأيكم في كتاب مغروس فيه قلم؟ كما كنّا نرسم في يوم العلم أيّام الابتدائية، فقط هكذا لنخدع به النّاظرين".

"لا خداع و لا شيء يا "جليل"، بحسب رأيك أنت، من يأبه للعلم و المعرفة اليوم؟ لا أحد، ما ينفع حقًّا هو المال، به تفتح أبواب مغلقة، في البلدان الأخرى تصعد به أدراج السّلطة جريًا، وتفرض به احترام العدوّ قبل الصّديق، تستطيع أن تكون رئيسا وتاجر مخدّرات، لا يهمّ ما دمت صاحب مال، الكلّ لك خدم إن احترفت تجارة الذّمم".

أثار شرح "عصام"إعجاب صديقيه، بعدها أضاف:

"فلتكن قطعةً نقديّة، برّاقة ذهبيّة، على خلفيّةٍ بيضاء، دليل النّقاء".

"وعلى العملة رأس حمار، مصكوكة بعناية، لربّما تسألون لماذا الحمار؟ سأفسّر لكم: لأنّه الحيوان الوحيد الذي لم يُر له شكل على نقود القدامى

والمُحدَثين، وكذلك المعاصرين، هكذا نتميّز عن الغير، فما رأيكم يا إخوان؟ بف بف ".

أراد "مروان"أن يُجارِيَ "عصام"في حُسن الرّأي و التدخّل في الوقت المناسب.

" لا بدّ و أنّك جنٌّ من الجان يا "مروان"".

" فِعلا أشعر بالإثارة".

بدأت صورة المشروع في الظّهور من خلف غيوم الشكّ و الرّيبة...

"انتظرا لحظة، فنحن على وشك دخول التّاريخ من بابه الواسع، إنّها جمهورية الحريّة يا أصحاب، لذا علينا أن لا نستعجل، وأن نبدأ بأهمّ شيء...".

"وما هو هذا الشيء يا ترى؟ أسرع بالإفصاح يا "جليل"".

"علينا التّعريف بأنفسنا، أن نظهر أوّلا".

"كيف هذا؟ ".

"بعد رفع الأسس وتجهيز كلّ شيء، علينا أن نعلن استقلالنا عن هذا البلد الذي يحوينا ولا يحتوينا، ومهما كان الأمر علينا أن نبقى متّحدين متضامنين، فنحن الثّلاثة قوّة عظمى لا تُقهر".

"حقّا؟ بماذا نحن أقوياء يا ترى ؟" يسأل "مروان"متعجّبا.

نظر "جليل"فيهما، ابتسم ابتسامة ماكرة ثمّ قال:" بالكذب".

علامات استفهام كثيرة، ماذا قصد "جليل"يا ترى؟ كيف يكون الكذب سلاحًا يتقوّى به قائله ...

لا زال "جليل"مبتسمًا... يدبّر أمرا خطيرا دون شكّ ...

صاحب المقهى و صديقه النّادل يتابعان ما يحدث من بعيد ...

و باهتمام أيضا ...

يا ترى ماذا سيحصل فيما بعد ؟

ما الذي يخفيه "جليل"؟

الفصل السّادس: المِصيدة

"اسمعا، فلنخرج من هنا و نكمل حديثنا في مكان آخر خالٍ من النّاس، فقد بدأ هذان يشكّان في الأمر"، قالها "جليل" وهو ينظر خلسة إلى صاحب المقهى و النّادل ... كانا يتنصّتان.

استغربا الأمر لكنّهما نهضا و تبعا "جليلا"إلى الخارج، تركوا ورقة نقدية على الطّاولة مقابل تلك القهوة التي لا يمكن تجرّعها.

في زقاق ضيّق مظلم، وعلى طريق زيّنتها شقوق كبيرة وصغيرة، يمشون بحذر من دون رفع الصّوت، فهنا وفي هاته البيوت المهلهلة القديمة يعيش أسوأ البشر: اللّصوص والمجرمون، أفراد عصابات، مروّجو مخدّرات ومدمنو الكحول، قتلة مأجورون وغيرهم من شرّ الخلق، لذا وجب عليهم المرور وتلافي هاته الملابس المبلّلة و المعلّقة من شرفة إلى أخرى بحذر شديد حتّى لا تسقط، لا قدّر الله إن وقع ذلك وخرجت امرأة ترثي غسيلها وهي تصرخ سيجدون المئات منهم بالسّيوف والخناجر في الاستقبال.

همس "مروان":

"ها نحن خرجنا، ماذا بعد ؟".

"لم أستطع إكمال ما بدأته فقد رأيتهما ينظران فينا نظرة مريبة، و كأنهما شكّا في شيء".

"بك وسواس يا "جليل"، ما كان علينا الخروج، المكان خطِر هنا".

"لا تخافا، استمرّا في المشي و استمعا فقط".

"تفضّل أكمل".

"قلت علينا بالكذب إذا أردنا أن نبني دولة عُظمى مُهابة، كيف؟ سنهدّد رئيس هذا البلد، بحوزتنا سلاح نوويّ فتّاك، إن لم يقبل قيام دولتنا على هاته الأرض فجّرنا القنبلة على رؤوسهم لنأخذهم و هذا الشّعب مرّة واحدة، هم على كلّ حال غثاء كغثاء السّيل لا ينفع".

ارتعش "مروان"رعشة شديدة، بكى بكاء الطّفل المفزوع:

"ونحن؟ نموت معهم أيضا يا "جليل"؟".

"اللّعنة، اصمُت ستفضحنا، لماذا لا تفهم؟ ليس لدينا أصلا سلاح كهذا، قلنا نكذب يا أخي نكذب، فكلّ الأمور تسير اليوم بالخداع، الكذب سلاح أكثر فتكًا من الصّواريخ النّوويّة و القنابل الذريّة".

"آه أرحتني، ظننت أنّنا نملك سلاحا كهذا ولم تخبراني".

رأى فيه "جليل"متعجّبا من حُمقه:

"لا أشاطرك الرّأي يا أخي".

"ماذا تقصد يا "عصام"؟".

"لكي يقوم بلدنا على أسس صلبة لا تهتزّ علينا التّعريف به قبل أن ترتفع أسسه الرّكينة، نحن نكذب، إذن فلنكذب كذبًا يدعو العقول إلى التّصديق، و هذا الاقتراح لا أظنّه ينفع، علينا بكذبة أخرى يصدّقها النّاس بشكل طبيعيّ، ثمّ إذا خافوا منّا تركونا وشأننا، لنبنيَ وطننا دون مشاكل".

ساد صمت طويل، لا تسمع في تلك اللّحظات غير الوقع الحذر لنعالهم، وفي الأخير و بعد مسافة من المشي ليست باليسيرة:

"وماذا تقترح ؟".

"تهديد أخطر و أقوى حاكم، حتى يعرف الكلّ من نكون، فهذا البلد الذي فيه نقبع شبه منسيّ، يجب أن نروم المعالي، و إلاّ لن تقوم لنا قائمة" يقولها "عصام"بثقة كبيرة.

"إن لم نهدّد رئيس بلدنا فمن نهدّد إذن ؟".

"إمبراطور دولة الأعين الضيّقة".

"تقصد ذاك الذي أرسل البارحة صاروخا على "العمّ سام" ؟".

"لم ينجح الهجوم لأنّ "العمّ سام" تفطّن للمكيدة قبل وقوع الكارثة ففجّر الصّاروخ في عقل دار الإمبراطور".

تحمّس "مروان"و تدخّل:" إذن فلنهدّد العمّ سام".

انتفض "جليل": " لا، علينا أن نكون أكثر حذرا، فـ "العمّ سام" صعب المِراس، و إن أغضبناه الآن ستكون نهايتنا وشيكة ".

ردّ "مروان": "يعني بحسب رأيك سنعيش طويلا بعد تهديد "الإمبراطور" أليس كذلك ؟".

"هو اختيار أحلاهما مرّ، أفضّل أن يكون هو على أن يحشر "العمّ سام" أنفه في شؤوننا، فإن دخل أرضنا لن يخرج منها إلاّ بعد أن يمتصّ منا السّائل والصّلب، على الأقلّ الآخر يدمّر ولا يأبه، علينا أن نغامر وبحياتنا نقامر في سبيل مجدنا يا أحباب، بهذه البطولة الفذّة سيعرفنا العالم ويعترف بنا كأوّل بلد يقف في وجه الإمبراطور، سيكونون معنا وفي صفّنا، سنشكّل قوّة عالمية ضدّه، نجعله يركع عنوة، لتكون جائزتنا في الأخير أن يهدونا الحريّة والاستقلال بالتّأكيد".

دمعت الأعين لما قاله، إنّه الدّهاء، إنّها البطولة، إنّها الحرب في سبيل الحريّة، أمل الإنسانية في وجه الطّغيان، بعد مسح الدّموع وافقا على اقتراحه، لكنّ فرحتهم لم تكتمل، ففي لمح البصر التفّ عليهم جمع غفير من المسلّحين،

أحاطوا بهم من كلّ جانب، سبحان الله سيماهم في وجوههم: مجموعة من المدمنين والسّكارى بأيديهم السّكاكين، الخناجر والعِصيّ، البعض يحمل مسدّسات، أعينهم حمراء جاحظة وأجسادهم هزيلة عارية، عليها آثار الطّعنات والجروح، تنبعث منهم روائح العرق والبوْل النفّاذة.

من شدّة الخوف بلّل "مروان"سرواله وبكى دون توقّف، أمّا "جليل" و"عصام"فتسمّرا في مكانيهما دون أن ينطقا ببنت شفة.

"اليوم نهايتكم".

"كيف تجرّأتم و دخلتم "زقاق الشّيطان"؟"

"ستدفعون الثّمن أيّها الغرباء".

"سننزع جلودكم نزعًا و نأكلكم أحياءً".

فجأةً:

"اتركوهم، إنّهم معي".

ما هذا؟ من يكون ؟

التفت الجميع إلى مصدر الصّوت، إنّه زعيمهم الأكبر، الأخطر، الرّجل الذي يحترمه الجميع هنا، يتفرّقون سريعًا...

"إنّه ... إنّه صاحب المقهى".

"هو بالفعل".

"اللّعنة ماذا يحدث ؟".

بلغت الدّهشة بثلاثتهم مبلغًا عظيما، لم ينتظروا هذا بتاتا.

"اتبعوني، سنتكلّم بعد أن نصل إلى المقرّ".

"المقرّ؟ أيُّ مقرّ؟ عن ماذا يتكلّم ؟"

لم يملكوا الخيار، تبعوه وسط نظرات الكره و الغضب التي رمقتهم، وهاهم الآن أمام باب حديديّ قديم قد أكل منه الصّدأ حتّى الشّبع، فتحه صاحب المقهى ودخلوا جميعا، كم كانت دهشتهم كبيرة حينما اكتشفوا ساحة واسعة أرضيّتها رخام أبيض برّاق تتوسّطها نافورة روعة في الجمال، زيّنتها زخارف فريدة وحولها سبعة سباع تقذف الماء بتساوٍ من فيها داخل النّافورة، ماء رقراق عذب، عصافير تطير هنا وهناك، ترى أقواسا كثيرة كالجنود في نفس القامة متراصّة، و كأنّك في باحة المسجد الأمويّ، مداخل عدّة بعدد الأقواس، تبعوه و دخلوا أحدها، يجهلون وجهتهم، فقط استمرّوا بالمشي خلفه و في رواق طويل تكاد الظّلمة تأتي عليه، أخيرا نور ساطع، أضواء بيضاء ناصعة، وكأنّهم الآن في مستشفى، الجدران و الأرضيّة و حتّى

السّقف لمع بريق ما سبق وكاد يعمي الأعين، تغيّرت ملامح العمران في الدّاخل بشكل لافت، امتدّ بهم هذا الرّواق إلى أن وصلوا لنهايته، ابتعد بهم عن كلّ حيّ، صمت رهيب، كان بإمكانهم سماع صوت أنفاسهم وكأنّها رياح عاصفة، ونبض قلوبهم وهي تقرع طبول الخوف قبيل حرب تُنهي حياتهم بعد حين.

انتابهم القلق، ماذا بعد أن وصلوا أمام هذا الباب الضّخم ؟

أدخل صاحب "مقهى السّابعة" بطاقة إلكترونية في فجوة غريبة جانب الباب و إذا به يُفتح، ولجوا و يا للمفاجأة، العشرات من الحواسيب تضيء بشاشاتها الزّرقاء القاعة العملاقة، جيش من الشّباب قبالة هاته الشّاشات يعملون بنشاط، كلّ و حاسوبه.

أغلق الباب فاستدار الرّجل:

"هذا هو المقرّ".

دهشة ما بعدها دهشة، لم يصدّق ثلاثتهم أنّهم في "مقرّ سريّ"و في زقاق قذر.

"من أنت؟ و أين نحن ؟"تساءل "عصام".

وقف الرّجل أمامهم بشموخ، رأوه جيّدا، كهل أخذ من رأسه الشّيب الكثير وكذا من شاربه، نظرته حادّة وتقاسيم وجهه قاسية:

"مقهى السّابعة"مكان غير عاديّ، هو "مصيدة النّوادر"، ذاك المكان لا يرتاده إلاّ من أرادوا التّخطيط لأمر فريد، خطير، كبير أو سريّ لا يريدون كشفه للعامّة، فينعزلون إلى المكان الذي لا يجرؤ أحد الذّهاب إليه أو البقاء فيه، كما فعلتم، و نحن، أنا وزميلي من "قنّاصي الفرص"، ما رأيتموه فقط واجهة، تمثيل، في الحقيقة نعمل وسيطيْن بيننا و بين من يساعد هؤلاء الحالمين على تحقيق أحلامهم "المجنونة"، سمعناكم تتكلّمون هنا في المقهى و كذلك في الزّقاق، كاميرات المراقبة والميكروفونات المصغّرة في كلّ مكان وهي مخفيّة داخل المقهى وخارجه".

زادت دهشة الأصدقاء الثّلاثة، اختلطت عليهم الأمور:

"تبًّا لنا ماذا فعلنا بأنفسنا، كُشف سرّنا الآن".

"و كأنّنا في فيلم هوليودي يا "عصام"بف بف"

"إنّها الحقيقة يا "مروان"نحن في مأزق".

ضحك الرّجل و أضاف:

"لا تخافوا، قلت لكم نحن هنا للمساعدة وقد أتيتم إلى المكان المطلوب، لا داع أصلا للشرح، فنحن ندري الآن أنّكم تريدون بناء مجتمع جديد، بلد آخر على هاته الأرض، وقد توصّلتم إلى فكرة استفزاز "إمبراطور مملكة الأعين الضيّقة"وتأليب الرّأي العام ضدّه لتطيحوا به حتّى يكون لكم فضل السّبق إلى هذا الأمر فتجعلون لقضيّتكم مصداقيّة عالمية لا يعترض عليها أحد، أقصد الاستقلال ببلد جديد".

"لقد قلت كلّ شيء، لكن لم تعرّفنا بنفسك، وهل أنتم منظّمة ؟".

"أنا السيّد "زكي نافع"قنّاص وسيط"، أنا و زميلي ننتمي إلى "نادي الحقيقة"، هدفنا أن نجعل أحلام زبائننا واقعًا ملموسا ... غير أنّ خدمتنا ليست مجّانيّة، وهي مكلفة أيضا".

انتفض ثلاثتهم:

"لكنّنا لم نطلب خدماتكم، أنت من اقتدتنا إلى هنا و أدخلتنا هذا المكان الغريب".

"هذا المكان الغريب يسمّى "غرفة العمليّات"، نتواصل بمن يستطيعون مساعدتكم لتحقيق ما تريدون، سيولة الإنترنيت هنا خياليّة وهي الأسرع في العالم، كما ...".

قاطعه "جليل":

"تبًّا لك، من قال لك اشرح لنا ما يميّز هذا النّادي اللّعين، لم نطلب مساعدتك و فقط، يعني لا دخل لك و لا لغيرك فيما نقوم به".

"فات الوقت، نحن على علم بما تخطّطون".

"ماذا تقصد ؟".

"إن لم تقبلوا خدماتنا كشفنا أمركم للسّلطات العليا، فكلّ ما حدث ودار بينكم، حواركم في المقهى وفي الزّقاق مسجّل بالصّوت والصّورة، وتعلمون أنّ عقاب "الخيانة العظمى"هو الإعدام".

صرخ "مروان": "ماذا؟ "الخيانة العظمى"؟".

"ما معنى أن تنشئ بلدا جديدا على أرض بلد آخر دون وجه حقّ و دون تنازل رسميّ من الجهة المالكة للأرض؟ دون موافقة شعب بأكمله؟ أنتم تخونون الوطن بتكريس الشّقاق و أنتم أبناؤه، تشجّعون بعضا من أبناء وطنكم على التنكّر لأسس قيام دولتكم و خصوصا الوحدة الوطنيّة: وحدة المقوّمات و وحدة الأرض".

"عن ماذا يتكلّم يا "جليل"؟".

"عن أمر خطير يا "مروان"، لن تفهمه".

"لقد تورّطنا يا رفاق، ماذا نفعل ؟".

ساد الصّمت طويلا ...

"لا سبيل لكم سوى التّعاون، عليكم قبول خدماتنا، ليس لكم خيار آخر".

مصيبة وقعت على رؤوسهم، من أين أتاهم هذا البلاء وقد كانوا قبل هذا من الآمنين.

"حسنا، وكم ستكلّفنا أتعابكم ؟".

"تدفعون الأتعاب في الوقت الذي يُطلب منكم، إن لم تفعلوا فستتمّ متابعتكم، و إن لم نجدكم في حينها سنبحث عنكم في كلّ شبر من هاته البسيطة و تُقتلون، لا داع لأن أذكّركم برجالي الذين اعترضوا طريقكم في الزّقاق".

جفّت حلوق الثّلاثة.

"لكن يا سيّدي بالتّقريب كم ؟"يصرّ "عصام".

"المهام السّهلة بين مليون و مليونيّ دولار، الصّعبة والمعقّدة بين خمسة وستّة ملايين دولار، المهام شبه المستحيلة عشر ملايين دولار".

قفز "عصام"على "زكيّ"و الحمد لله أنّ "جليل" و "مروان" اعترضاه في اللّحظة الأخيرة و إلا وقع ما لا يُحمد عقباه:

"عليك خمسة ملايين لعنة، من أين سنأتيك بكلّ هذا المال؟ أمجنون أنت؟".

"ليس بقدر جنونكم أنتم، فكلّما كانت الفكرة جريئة و خطيرة ارتفع الثّمن".

"دعك منه يا "عصام"سنجد حلاّ لا تقلق".

"أيّ حلّ ؟؟؟ أبجوزتك خزينة مال قارون ؟".

التفت "جليل"نحو "مروان"ففهم "عصام"المقصود.

"لماذا تنظران فيّ هكذا ؟".

"أنتم من أغنى أغنياء البلد، أبوك ينام على سبائك الذّهب، لكم القصور والأراضي ومن الأملاك ما لا يُعدّ، يمكنك تخليصنا من هاته المشكلة".

"كيف ؟".

"بدفع الأتعاب".

"لكن ...".

"وإلاّ ننسى حلمنا هذا إلى الأبد، أصلا لا نستطيع أن نحقّق المشروع دون مساعدة أناس نعتمد عليهم و نثق فيهم، وها قد لاقانا القدر بالسيّد "زكي"، فماذا قلت ؟".

تردّد "مروان"لحظات، ثمّ قال:

"لا أدري ... لا أعدكم بشيء".

"المهمّ تدبّر أمرك، لدينا أمور أخرى تشغلنا".

"حتّى أنا لا أعدك بشيء ... لكن سأحاول".

تدخّل "زكي":

"في رأيي أفضل من يمكنه مساعدتكم قرصان معلوماتيّ محترف".

"اشرح لنا كيف".

"يحاول اختراق الحسابات المحميّة، خصوصا المتعلّقة برجال الدّولة، وكما تعلمون "إمبراطوريّة الأعين الضيّقة"بلد ليس كغيره، نظام إمبراطوريّ استبداديّ، في مشاكل كثيرة مع مختلف الدّول التي باتت معادية له، لهذا وجب أن تنفذ المهمّة بمنتهى الذكاء، كيف؟ بإرسال رسالة تهديد سريّة لا تكشف أمركم، و إن كانت ردّة الفعل عنيفة من طرف الإمبراطور، وهذا الذي أعتقد، فسيعلنها جهارا ليكون هو البادئ في أعين المبصرين، سيُعلن الحرب ويُتّهم كما العادة بمحاولة اختلاق مشاكل جديدة لأجل مصالح شّخصيّة، لن يصدّق أحد قصّة البريد الإلكترونيّ ولو كشفوا أمره، لأنّ العداء الشّديد له يستدعي كلّ كبيرة وصغيرة للإطاحة به، مجرّد سبب بسيط يكفي، هكذا سيقف العالم كلّه ضدّه وأنتم في مأمن، سترفعون أصواتكم كدولة جديدة معادية لهذا الطّغيان، بل ستكونون رأس الحربة في حرب عالميّة ثالثة تقضي عليه، وفي الأخير قبول تأسيس لبنة بلد جديد كما تريدون وتشاؤون وعلى أي أرض تريدون جزاء التّفاني والتّضحية، فما رأيكم ؟".

نظر الأصدقاء في بعضهم فرحين مستبشرين:

"والله جميل، ما أتيت به أفضل من اقتراح "جليل"بف بف بف ".

"أعترف أنّك داهية يا سيّد "زكي"، وكما قال "مروان"فكرتك أفضل بكثير".

ابتسم ثمّ أضاف:

"اتركوا مهمّة ربط الاتصال بالقرصان لي، أنتم اذهبوا لبيوتكم وغدا بإذن الله ستُحلّ، نلتقي في المقهى، للأسف لن أستطيع استقبالكم بعد اليوم هنا".

"و هو كذلك".

ابتهج الأصدقاء وسعدوا لما آلت إليه الأمور، فلم يتخيّلوا أن تسهُل عليهم كما حصل اليوم رغم أنّ التخوّف من "فاتورة"الأتعاب لا يزال يؤرّق "مروان"، مع ذلك تمّ تجاوز جلّ العقبات ولا زالت فقط مرحلة التّطبيق، وبعدها النّتائج ...

خرج ثلاثتهم من "المقرّ السريّ"ناسين أن يسألوا "زكي"من كان صاحب فكرة إنشاء مثل هذا النّادي الذي يحقّق أحلام الحالمين الجريئين مثلهم.

خرجوا من زقاق الشّيطان مطمئنّين وعاد كلّ منهم إلى بيته مشتاقا لغد يفتح لهم أبواب المجد الخالد.

الفصل السّابع: القرصان

اليوم يوم عظيم، التقى فيه "المجنون"، "المنطاد" و "المتسوّل"أمام باب مقهى "السّابعة"، وهاته المرّة من أجل وضع أوّل لبنة في صرحهم الموعود، دخلوا جميعا وأخذوا مكانهم السّابق، نفس الظّلمة ونفس الرّوائح الكريهة تملأ المكان، انتظروا قدوم السيّد "زكيّ"، انتظروا الجديد على أحرّ من الجمر، هل اتّصل بالقرصان المعلوماتيّ؟ هل وافق؟ كم هي أتعابه ؟

ها قد أتى ...

"لكن أين السيّد "زكي"؟"يسأل "عصام"هذا الرّجل الذي قدم بحاسوبه المحمول، هو نفسه الذي كان معه في المقهى.

"شغل "زكي"أمر مُستعجل، كلّفني بأن أوصلكم بالقرصان، تلك مهمّتي، معكم "فريد"متشرّف بمعرفتكم".

نظر ثلاثتهم فيه، لكنته غريبة، ليست عربيّة صريحة، مال بها ميلا نحو الإنجليزيّة، كذلك عن قرب بدا إنجليزيًّا أو من أمريكيًّا: عينان خضراوان، أشقر، أبيض البشرة و نحيل، ملامحه لا تنمّ عن القسوة والغلظة كما هي عند العرب، المهمّ الآن أين هو هذا القرصان؟

"تابعوا هنا من فضلكم، سيبثّ فيديو مباشر يخاطبكم فيه".

"ألن يحضر شخصيًّا ؟".

"كلاّ".

"لماذا؟ أهو مريض؟ أم هو في المرحاض ؟".

"لا هذا و لا ذاك، من فضلكم لا تسألوا أسئلة أنتم في غنى عن أجوبتها".

"حسنا"ردّ "مروان"متأسّفا.

حانت اللّحظة، ألصقوا أعينهم في شاشة الحاسوب، انتظروا ظهوره...

ها قد بدأ البثّ ...

صورة شخص ثابتة، من دون ملامح أو تفاصيل، سوداء لا تُظهر شيئا.

"سبحان الله أوّل مرّة أرى فيها شخصا أسودًا سواد اللّيل هكذا، لون بشرته، شعره و لباسه بلون واحد، و كذلك لا يتحرّك و كأنّه صنم، غريب"تساءل "مروان".

"يا "منطاااااد"هذه صورة فقط، لا يودّ الظّهور حتّى من خلال الشّاشة".

"و لماذا لا يريد الظّهور يا ترى؟ اشرح لي يا "عاصم"".

"ببساطة لأنه خجول، شغّل عقلك يا "مروان"".

"ربّما صحيح".

فريد مقاطعا:"كلّ ما في الأمر يا سادة، أنّ القراصنة لا يكشفون أبدا عن هويّتهم الحقيقيّة حتى لا يعرّضوا أنفسهم و أهليهم للخطر، فما يقومون به في العادة مخالف للقانون".

"قلت لكم أنّنا في فيلم هوليودي، رائع يا رفاق بف بف بف".

بقيَ "جليل"صامتا لا يردّ حتّى:

"أهلا بكم جميعا، أنا القرصان "أزرق"، هذا اسم مستعار يمكنكم مناداتي به، قد أعلمني "زكي"بكلّ تفاصيل مشروعكم، و دعوني أقول لكم أنّ حسن تدبيركم و خطّتكم لبناء مجتمع جديد قد أبهرتني و شدّت انتباهي، فهذا لا ينمّ إلاّ عن عقول مُبدعة جريئة، أحييكم".

فرح الثّلاثة بما سمعوا فرحًا لا يُوصف، فلأوّل مرّة أثنى عليهم إنسان.

"لقد قمت بخطوة استباقيّة لتسريع الأمور، وددتم إرسال رسالة تهديد لإمبراطور الأعين الضيّقة أليس كذلك ؟".

ردّ "جليل": و هو كذلك، ماذا فعلت يا "أزرق"؟".

"لم استطع اختراق حساب "فايسبوك"و حساب "تويتر"الخاص بالإمبراطور، حتّى الإرسال مستحيل، كذلك بالنّسبة لوزرائه وأعوانه، ثم اكتشفت أنّها واجهة فقط، رماد ديمقراطيّة يذرّ في أعين الغافلين، و كأنّهم على تواصل دائم مع أفراد الشّعب أو غيرهم من الجنسيّات الأخرى وما هو إلاّ وهم أوهموهم به، فاجتهدت أكثر و بحثت عن مسلك يوصلني إلى أقرب وزير أو عون له، فوجدت ضالّتي بعد أن تحصّلت على البريد الإلكترونيّ لأحد أقوى قادتهم العسكريين، برتبة لواء، بقي فقط أن أوافيهم بما وددتم قوله، أنا انتظر".

هاج ثلاثتهم على بعضهم البعض، ودّ كلّ واحد فيهم أن تكون كلمته هي الأسبق:

"قل له أنت و الإمبراطور قمامة العالم، لا نخاف منكم، نحن حكّام جمهوريّة الحريّة العظمى لا نخشى من أحد"قالها "مروان"في خضمّ صراعه مع صديقيْه اللّذان تناوبا الضّربات و لم يتوقّفا ...

"بسرعة حشرت أنفك؟ بل قل له سنرميكم بالنّوويّ من الجيل الخامس إن لم تستسلموا و تضعوا السّلاح، من حكّام جمهورية الحقّ و اليقين"و هاته كانت من "عصام".

"نحن أشاوس جمهوريّة الحقيقة الظّاهرة، نطالب إمبراطور الأعين الضيّقة بالتنحّي عن منصبه و تغيير حكم البلاد الفاشل إلى ليبرالي ديني، و إن لم يستطع فديكتاتوريّ، أسمعت يا سيّد "أزرق"؟".

ضحك "فريد"ضحكًا خافتا، لم يفهم القرصان لغط هؤلاء المجانين، ففصل في الأمر قائلا:

"سأرسل له رسالة أقول فيها: "من حكّام جمهوريّة الحريّة العظمى إلى إمبراطور الأعين الضيّقة، تبًّا لكم جميعا و السّلام".

صرخ "مروان"فرحا: " أحسنت هكذا لكي يعرفوا من نكون".

" هيّا افعل، ماذا تنتظر ؟" أضاف "عصام".

"اجعلها طويلة عريضة، و أكثر فيها السّباب و الشّتيمة"ختمها "جليل".

"لكن قبل أن أرسلها عليكم أن توفوا بثلاثة شروط".

نظر بعضهم في بعض ...

"الأوّل هو المال، الأتعاب: سبعة مليون دولار".

مبلغ خياليّ، فعلا خياليّ، وقف "مروان"شامخا، أخذ الحقيبة التي أتى بها، فتحها أمامهم و إذا بسبائك ذهب مصطفّة تلمع لمعان الشّمس بلونها الأصفر الوهّاج:

"هنا ما قيمته أكثر من عشرة ملايين دولار، كلّها لك ".

دُهش "جليل"، غير أنّ دهشته ليست كما التي بدت على وجه "عصام"، جحظت عينا المسكين، لم يصدّق ما رآه، سبائك ذهب حقيقيّة كما التي رآها في الأشرطة الوثائقيّة، تكفيه واحدة منها ليصير غنيًا، واحدة فقط وتُحلّ كل مشاكله، واحدة و تتحقّق كلّ أحلامه، سال لعابه و عيناه لم تفارقا الحقيبة، رأى فيه "جليل"فأدرك أنّ الرّجل قد فقد كلّ إحساسه وجزءً من وعيه، هو ليس معهم الآن.

"لا تقلق يا "عصام"حينما نبني بلدنا ستكون خيراته بين أيدينا، تلك الخيرات تعادل ملايين بل ملايير المرات ما تراه في هاته الحقيبة، فاصبر قليلا فقط".

"و الله يا أخي كنت على شفا القفز على الحقيبة و سرقتها، ذهاب دون رجعة، لولا أنّك قلت ما قلت، كيف حصّلت كلّ هذا الذّهب يا "مروان"؟".

ضحك "المنطاد"و قال:

"سرقت خزينة أبي، أو بالأحرى بعضا منها دون أن يدري، السرّ في مفتاح الخزنة الذي كان يخفيه في مزهريّة جانب سريره، ومعه بطاقة خاصّة بأرقام الفتح السريّة، لن يتفطّن للأمر فما يوجد بداخل الخزنة من سبائك لا يعدّه إنسان، المهمّ أن نحقّق حلمنا معا".

سمع القرصان كلّ ما دار بينهم من كلام، تدخّل و قال:

"حسنا، اجمعها يا "فريد"وأخفها في المكان الذي اتّفقنا عليه وبعدها نتحاسب".

فعل فريد ما طُلبه منه، أضاف "أزرق":

"ثانيا، تبقى العمليّة هذه سرًّا بيننا مهما حصل".

نطق ثلاثتهم:

"بالطبع".

"ثالثا وأخيرا، سمحت لنفسي أن أبحث لكم على أرض مناسبة تقوم عليها دولتكم الجديدة، وكما علمت تريدونها بعيدة نوعا ما، ربما خوفًا من أي اعتداء أو هجوم و أنتم في بداية البناء و التّعمير أليس كذلك ؟".

انتفض "جليل"و ردّ:

"نعم ... كذلك".

"لاحظوا هاته الصّورة، إنّها من الجنوب، أرض مسطّحة تحيط بها من بعيد كثبان رمليّة، غير معروفة، منطقة لم تطأها قدم بشريّ من قبل، في باطنها الغاز والبترول يكفيان بلدا لما لا نهاية من أعوام، اكتشفت ذلك بعد بحث دقيق واستشارة العديد من المختصّين".

"وقمت بكلّ ذلك البارحة؟ فقط البارحة ؟".

"نعم، عملنا احترافيّ سيّدي، و هدفنا رضا الزّبون وراحته، فما رأيكم في الاقتراح ؟".

أُعجب الأصدقاء بذكاء وفطنة هذا القرصان، شعرُوا بالرّاحة والطّمأنينة...

"لقد قدّمت أكثر مما هو مطلوب، بارك الله فيك يا "أزرق"".

شكر "جليل"القرصان، لكنّ العمل لم ينته بعد:

"عليكم أن تذهبوا اللحظة إلى هناك، في الخارج تجدون سيّارة رباعيّة الدّفع سوداء، ستوصلكم إلى المكان المطلوب، ستدوم الرّحلة من سبع إلى ثمان ساعات، ربّما أكثر بحسب الظّرف المناخيّ، ستبقون هناك حتّى أرسل

لكم التّعليمات، خذوا معكم هذا الحاسوب حتّى نبقى على اتّصال، السّائق سيوصلكم، وللعلم، لن يذهب معكم السيّد فريد".

أضاف:

"في السبع ساعات الموالية، سأجمع قوى العالم إلى جانبكم، و أحذّر الدّول الأخرى من إمكانيّة قيام حرب عالميّة ثالثة بسبب تهوّر الإمبراطور واحتمال استعماله السّلاح النّوويّ في هجوم عشوائيّ على أيّ دولة، سأضعكم في الصّورة وأجعلكم السّهم الذي يخترق قلب الطّاغية ويسعى إلى الحريّة و كبح جماح هذا المغرور، ستكونون من يكشف خبثه للعالم، سيجتمعون عليه وتكون نهايته، لن يطول الأمر حتّى تكونوا أبطالاً في ظرف سويعات قليلة، سيستغلّ الإعلام هاته الحادثة ليجعل منها أسطورة لن تتكرّر: "ثلاثة شبّان يرومون الحريّة والاستقلال بوطنهم الجديد، يطيحون بالجبّار المعتدي وينقذون البشرية"، هكذا بالبند العريض، في كلّ الصّحف والمجلات، في كلّ الأخبار و البرامج، في كلّ مكان ووقت، سيقف الكلّ معكم، بل سيعينوكم على تحقيق حلمكم، وليس محالا أن يُهدي رئيس الجمهوريّة التي أنتم فيها حاليًّا تلك الأرض لكم امتنانا وشكرا، و إن لم يكن ذلك ستطالب البلدان الأخرى بتحقيق ما تريدون لأنه صار من حقكم ومن واجبه هو، بل ستتهافت لدعمكم ماديًّا ومعنويًّا لرفع راية بلدكم، و يأتي النّاس من كلّ حدب و صوب

يريدون العيش في أروع بلد، الأكثر تطوّرا وغِنى، يتزعّمه ثلاثة من أحكم حكماء هذا القرن".

كان هذا الكلام بمثابة المخدّر الذي طار بثلاثتهم إلى كونٍ مليء بألوان الفرحة والبهجة، لم يصدّقوا أنّ كلّ ذلك سيحصل بالفعل، صاروا يضحكون كالمجانين، أعينهم في سقف المقهى معلّقة و هم يردّدون:

"نحن الزّعماء ... نحن الزّعماء ...".

"التحقوا الآن بالسيّارة فهي في انتظاركم، لا تقلقوا بشأن المأكل والمشرب، كلّ شيء متوفّر بالدّاخل، ما عليكم سوى الاستمتاع برحلتكم قبل تذوّق حلاوة النّصر العظيم".

"شكرا لك يا "أزرق"، لن ننسى صنيعك هذا أبدا".

"حينما نكمل البناء و التّعمير، ندعوك للعيش في بلدنا و مجّانا، لن ينقصك شيء فأنت تستحقّ".

ضحك القرصان ثمّ أنهى كلامه بـ:

"ربّما، سنرى".

حمل "جليل"الحاسوب وخرج هو وصديقاه من المقهى وإذا بالسيّارة كما قال "أزرق"في انتظارهم، مباشرة دخلونها وأقلعت بهم نحو المجد المنتظر، تاركين السيّد "فريد"واقفا ينظر إليهم وهم يبتعدون رويدا رويدا حتّى اختفى أثرهم، ابتسم ابتسامة غريبة وقال:

"مجانين، بالفعل مجانين".

الفصل الثّامن: ردّ الإمبراطور

هناك في بلاد يعيش فيها ذووا الأعين الضيّقة، أُعلنت حالة استنفار قصوى، جمع الإمبراطور مستشاريه وأولي الأمر وكذا القادة العسكريين لاجتماع طارئ:

"اليوم يا سادة تتعرّض إمبراطوريّتنا المجيدة لتهديد صارخ غير مسبوق من طرف عدوّ مجهول، اليوم، نُهدّد في أمننا، في أرواحنا، يا جماعة أمّتنا في خطر، نحن في خطر، علينا حلّ هاته المشكلة الآن دون مماطلة ونردّ على المعتدي ردًّا يليق بمقامنا المجيد".

للإمبراطور ذرع يلفّ جسده بالكامل، ضخم الجثّة قويّ العضلات بملامح سفّاح قاتل، حاجبان ثخينان على عينين صغيرتين كقوسيْن مرسومين بدقّة يحملهما وجه برّاق أملس، شديد لا يرحم، لا يخاف لومة لائم.

نهض من كرسيّه الذّهبيّ و رفع صوته:

"هاته الجبال الشّاهقة الباردة، و التي تحمل على رؤوسها ثلوج النّقاء، هاته الأنهار الرّقراقة الصّافية، هاته الأراضي الخضراء و المزارع التي ترتمي على مدّ النّظر، هذا الهواء النقيّ الذي لن نجده إلا في هذا البلد الطيّب، مدننا المعاصرة، أريافنا الهادئة، كبارنا و صغارنا، شبابنا المفعم بروح المسؤوليّة، هذا الشعب المخلص الأبيّ كلّهم في حفظنا، أقوى قوى العالم لم تجرؤ على

مقارعتنا، واليوم تأتي شرذمة لا أدري من أين، تهدّدنا نحن الإمبراطورية العظيمة ؟".

تساءل الحضور الجالسون من كان هذا العدوّ الذي تكلّم عنه الإمبراطور، لم يمتلك أحد الجرأة لطرح السّؤال عليه خوفًا من إزعاجه، بل لم يتحرّكوا البتّة من أماكنهم حتّى لا يُحدثوا جلبة بدروعهم التي ارتدوْها بأمر منه، فأيّ خطأ في حضرته يساوي الإعدام.

"قل لهم يا لواء، يا قائد القوات العسكرية في هاته الإمبراطوريّة التي لم تعد لها هيبة بين الأمم".

صوته هزّ القريب و البعيد، شرر الغضب تطاير من عينيه كجمر أحمر حارق، زاد خوفهم منه و تمنّوْا لو ينتهي هذا الاجتماع بسرعة حتّى يتنفّسوا الصّعداء، يقرأ عليهم اللّواء تقريرا أعدّه على عجل:

"جلالة الإمبراطور، إلى غاية اللّحظة العدوّ مجهول، لم نستطع تحديد مصدر الرسالة التي وصلتني عبر البريد الإلكترونيّ ... الخاصّ بي".

غمرت الجميع دهشة كبيرة، كيف هذا؟

"يعني أنّ نظامنا الأمنيّ ضعيف، هذا العدوّ وجد عنوان البريد الإلكتروني للسيّد اللّواء و أرسل له رسالة دون أن نستطيع كشفه أو ضبطه، و كما

فعلها معه سيفعلها معنا، وربّما سيتمكّن هذا القرصان من اختراق حساباتنا والتّلاعب بالمعلومات السريّة التي نحتفظ بها في البنك الإلكتروني للإمبراطوريّة، اللّعنة عليكم جميعا".

أكمل اللّواء و قد تسلّل الخوف و الهلع إلى قلبه:

"الرّسالة باللّغة الإنجليزيّة و قد ترجمناها: "من حكّام جمهوريّة الحريّة العظمى إلى إمبراطور الأعين الضيّقة، تبًّا لكم جميعا و السّلام".

ضرب الإمبراطور الطاولة بقبضته فأحدث صوتًا اهتزّت له الأبدان، قسمها نصفين أمام دهشة الجميع، لم يستطيعوا البقاء جالسين فوقفوا و ركابهم ترتعش و والعرق مُطرهم:

"في رأيكم ... من يكون هؤلاء ؟".

صمت الجميع ... أحد المستشارين ردّ:

"يا أيّها الإمبراطور المعظّم، خبرتي في الحكم والسّياسة تفوق الأربعين سنة، و قد عملت مع أبيكم المعظّم قبل أن توافيه المنيّة، ولم أسمع قطّ بجمهوريّة بهذا الاسم، كما أنّ عجزنا على تتبّع مصدر الرّسالة مريب غريب، هذا قرصان محترف له إمكانيات وقدرات لا يتمتّع بها أقرانه في المجال، هو مدعوم بالتّأكيد".

"لم تأتنا بالجديد يا مستشار".

"من العجيب أنّه ترك لنا مجال التّواصل معه رغم أنّنا أعداؤه، و هذا ما أدخل الشكّ فيّ يا إمبراطور، لا بأس، اقتراحي أن نرسل رسالة ردّ لهذا القرصان ما دامت فيه إمكانيّة، بذكاء نتقفّى أثرها لنصل إلى المصدر الفعليّ لهذا التّهديد".

صمت الإمبراطور هنيهة ثمّ قرّر:

"فليكن ما قلته، أنتظر النّتيجة على أحرّ من الجمر".

خرج متبوعًا بالحرس الإمبراطوريّ، تاركًا رجالا يبكون خوفا من بطش غضبه.

في هاته الآونة قطع الأصدقاء طريقا صحراويًّا بديع الرّوعة و الجمال، من زجاج السيّارة يرون خلق الله سبحانه، تلك الرّمال أمواج صفراء تدفعهم بغير جهد إلى أعماق الصحراء، صحراء فتحت ذراعيها مرحّبةً بهم و بحرارة.

بدت السيّارة التي شقّت طريقها قُدُما كخنفساء سوداء تسرع هاربةً حتّى لا تبتلعها الرّمال العملاقة، منظر جميل فتّان.

تسامر الأصدقاء و أكلوا أطيب ما وُفّر لهم في السيّارة التي تشبه غرفة استقبال الضّيوف من الدّاخل، فيها ثلاّجة مليئة بالخيرات ومقاعد جلديّة وسط جوّ مُكيّف منعش.

في غمرة المتعة اللاّمتناهية ووسط الضّحكات العالية لم يتذكّروا أنّهم تركوا أهليهم دون وداع، بل نسوهم تماما، في تلك الأثناء يتّصل "أزرق"، فيجتمع ثلاثتهم على الحاسوب:

"أهلا بالأحبّاء، أرجو أن تكونوا بخير، وددت إعلامكم أنّ الإمبراطور ردّ قائلا:

"لا نعلم من تكونون، فـ "جمهوريّة الحريّة العظمى"غير موجودة أصلا، نرجو ذكر المصدر".

نظر بعضهم في بعض:

"فعلا، "جمهوريّة الحريّة العظمى"لم تقم أسسها بعد، كيف يعرف أنّه نحن؟ "سأل "مروان"صديقيه وحبّة موز في فمه.

"مشكلة ... ماذا نفعل الآن يا "جليل"؟ ".

"ولا فكرة".

"ما رأيكم أن تقولوا أنّكم من "جمهوريّة النّوارس"، لكن بشكل مؤقّت ليس إلاّ، فأوّلا و أخيرا ستكون لكم جمهوريّة أخرى خاصّة بكم عن قريب تواجهون بها الظّلم و الظّالمين".

صمتوا، فكّروا قليلا، ابتسموا ثمّ:

"نعم قل لهم ذلك".

"وستُرسل لهم أيضا مقطع فيديو نصوّر فيه أنفسنا في صحرائنا الجميلة، نتوعّدهم فيه حتّى يتأكّدوا من أنّنا موجودون فعلا وليست كذبة، ستجتمع عليه قوى العالم و تمحيه من الوجود على كلّ حال، اصبر علينا قليلا سنرسل الفيديو بعد لحظات".

"نعم أقنعتني يا "مروان"، قالها "عصام"و هو راضٍ مرتاح.

"لأوّل مرة تدبيرك في محلّه"يضيف "جليل".

ردّ "أزرق":

"كما تشاؤون، أنا في الانتظار".

بعد مدّة ليست باليسيرة و كما كان منتظرا يرسل القرصان الرّسالة الإلكترونيّة و فيها الفيديو، تصل إلى الإمبراطور عن طريق اللّواء:

"إذن هم من "جمهوريّة النّوارس"، هل تأكّدتم؟ لربّما هي تسوية حسابات ويريدون الانتقام من رئيس هذا البلد و شعبه عن طريقنا نحن باستعمالنا سلاحًا ضدّهم".

"هذا الاحتمال مستبعد أيّها الإمبراطور المعظّم، فقد أرفقوا مع الرّسالة مقطع فيديو تأكّدنا من صحّته، هو غير مفبرك، وبتاريخ اليوم أيضا، يوضّح ثلاثة رجال يهدّدون الإمبراطوريّة، هناك سبّ و شتم قبيح، كذلك كانوا في الصّحراء، و بعد التّدقيق، تأكّدنا من صحّة المصدر لأنّ هناك معالم ماديّة توجد فقط في هذا البلد".

"أريد مشاهدة هذا الفيديو".

توتّر اللّواء و كذلك من حضروا معه من المستشارين.

"أستسمحك يا جلالة الإمبراطور، لكن الفيديو فيه كلمات نابيّة، و سبّ لشخصك المعظم و لعائلتك، فبعد الترجمة أدركنا أنّ ...".

قاطعه الإمبراطور و قد شرع الغضب في التهامه، بسرعة احمرّ وجهه مع عينيه فصار يشبه شيطان كنائس المسيحيين.

"قلت لك أريد رؤية الفيديو و إلاّ فصلت رؤوسكم عن أجسادكم ورميتكم جميعا لكلابي تأكل و تنهش جثّثكم أمام الخلق جميعا".

انتفضوا رعبا، بسرعة جُهّز العاكس الضّوئيّ وشُغّل الفيديو الذي تمّ تحميله...

مع كلّ لقطة زاد غضبه ...

ظهرت الشّرايين تحت جلد رأسه بارزة ...

ارتعش ...

جحظت عيناه أكثر ...

زاد احمراره فمال إلى الزّرقة ...

تسارعت نبضات قلبه ...

تعرّق ...

سال الدّم من فمه بضغط أسنانه على شفاهه المرتعشة ...

كلّ ذلك و هو يتابع الفيديو دون وعي تامّ منه ...

"أيّها الإمبراطور الفاشل، أيّها الملعون لن تستطيع شيئا".

"أنت دكتاتور حقير مغفّل، مجرّد فزّاعة".

"من تظنّ نفسك يا هذا؟ اذهب و ----------".

"تبًّا لك لماذا لم تمُت بعد؟ فلتنتحر يا --------- فأنت ---------- و ----------".

"ألا تدري بأنّك ---------- أليس لديك أطبّاء متخصّصون في ----- ----- ليؤكّدوا لك عجزك عن ---------؟".

ينتهي الفيديو بلقطات فاضحة ...

ماذا بعد الآن؟

انتظروا قرار الإمبراطور ...

"من المهمّ أيّها الإمبراطور المعظّم أن أنبّهك بأنّ القرصان الذي راسلنا قد محا كلّ أثر ، حاولنا تتبّعه مرة أخرى دون جدوى".

قالها اللّواء و قد رأى خيال ملك الموت يحوم في قاعة العمليّات هاته ...

غير أنّ الإمبراطور، و على غير عادته تحكّم في أعصابه ثمّ دعاهم للجلوس، دار بينهم نقاش قصير لم يدم طويلا، كانت آخر كلماته:

"سيدفعون الثّمن غاليا، و هؤلاء الثّلاثة أريدهم أمامي هنا، اتركوا الصّحراء كما هي، فبعد إتمام المهمّة الأولى أريد منكم إرسال الطائرات الحربية، وبالآلاف، و القيام بالإنزال الجوّي في المنطقة التي ظهرت في الفيديو، و إن

لم تجدوهم، تتبّعوا أثرهم و لا يعودنّ منكم أحد إلاّ بهم، أتسمع أيّها اللّواء؟ و إلاّ أعدمتكم جميعا، لا أقبل خطأً آخر مفهوم ؟".

يقف الجميع خائفين مفزوعين، مفجوعين في أنفسهم قبل إنجاز المهمّة، لكنّهم أيضا مصرّون على إتمامها مهما كان الثمن، فالتّضحية أفضل بكثير من أن تعود خاليَ الوفاض لسفّاح يجعلك تتمنّى الموت.

الفصل التّاسع: النّهايـة

وصلوا أخيرا إلى المكان المطلوب، إلى المكان الذي سيرى نور حضارة إنسانيّة جديدة، خرج الأصدقاء يتفقّدون المكان، أرض شاسعة مسطّحة، ليس فيها ارتفاع، لا حصى، ولا نبتة، وكأنّها معبّدة، شبه ملساء تشبه الرّغيف حسن الصّنع، حواليها جبال من رمال ذهبيّة، و فوقها ستار أزرق لا يشوبه لون، منظر رائع يوحي بمعنى الحريّة الحقيقيّة، غير أنّ الحرارة عالية، جدّ عالية، فما إن وضعوا أقدامهم على أرض الصّحراء استجابت أجسادهم بالتعرّق وطالبت بالماء:

"ما هاته الحرارة ؟؟؟ أحسّ نفسي و كأنّي دجاجة محمّرة، على ذكر ذلك جعت و عطشت بف بف".

"هذا هو المكان يا رفاق، سيتحقّق حلمنا عن قريب أليس كذلك يا "جليل"؟".

"نعم ... أنا متحمّس".

لاحظوا أنّ السّائق لم يخرج من السيّارة، بل لم يروه منذ أن انطلقت الرّحلة، لم يتكلّموا معه و هو بالمثل، انشغلوا بلهو الحديث و التهام الأطايب، فجأةً أخرج يده من زجاج السيّارة الأمامي، رمى حقيبة سوداء كبيرة، و انطلق بسيّارته مُسابقًا الرّيح، قاطعا الصّحراء حتّى غاب عن الأنظار، تاركًا أصحابنا واقفين غير مدركين لما يحصل.

"يا رفاق أترون ما أرى ؟".

"لم أفهم، أين ذهب و تركنا وحدنا هنا ؟".

"ربّما ليتبوّل، على الرّغم من أنّنا توقّفنا أزيد من خمس مرّات لقضاء حاجتنا".

"توقف من دون أن نطلب منه ذلك، و استغللنا الفرصة لقضاء الحاجة، أمّا رؤيته أو الحديث معه فهذا الذي لم يكن، لم يخرج من السيّارة طيلة رحلتنا الطّويلة، أليس الأمر غريبا ؟".

"لا تقولوا لي أنّه ... نسي شيئا و ذهب ليجلبه ثمّ يعود، سيُطيل حتما".

"لا أظنّ يا "مروان"، أعتقد أنّه اشتاق لأهله فذهب سريعًا لرؤيتهم".

"و نحن ماذا سنفعل هنا وحدنا ؟".

"نتّبع الخطّة فقط، ننتظر هجوم البلدان الأخرى على الإمبراطور و نتابع ذلك على شبكة الإنترنيت فلا يزال الحاسوب بيدي ... من الغريب أنّ التّغطية هنا موجودة".

"و بعدها ؟".

"بعدها ننتظر ذكر أسمائنا و نحتفل بنصرنا، لأنّ البلدان كلّها ستعترف بوجودنا أخيرا، و حتّى رئيس هذا البلد، ستلتحق بنا جحافل من كلّ مكان تريد بناء مجتمع جديد".

"لكن يا "جليل"، هل سننجح ؟".

"بالطّبع سننجح، مع الفيديو الذي أرسلناه ستكون هناك ردّة فعل سلبيّة من طرف الإمبراطور، ستعجبه أوراك "مروان"بالتّأكيد،".

"سيراها كبيرة و بحجمها الطّبيعيّ بعد أن نقلت الفيديو و حسّنت نوعيّتة على هذا الحاسوب".

ضحك ثلاثتهم ... ثمّ توقّفوا فجأة:

"ما قصّة هذه الحقيبة ؟".

اقتربوا و فتحوها، و إذا بها خيمة.

"خيمة؟ سنبيت هنا؟ و في العراء ؟؟؟". تساءل "عصام"و القلق بادٍ على وجهه.

أجابه "جليل": "على حسب ما أظنّ نعم، لماذا تركها لنا و ذهب إذن؟".

"لا بأس يا إخوان، فمع الخيمة أكل و ماء، سيعود في الغد بالتّأكيد".

تأكّدا من قول "مروان"فوجدا المؤونة بالفعل، يرتاحان لذلك.

"لا بدّ و أنّه مشغول فقط، لنبيت هنا و نقوم بالحراسة بالدّور ليلا، لدينا ما نأكله و ما نشربه، و لدينا خيمة نبيت فيها، ما علينا سوى تتبّع الأخبار على الحاسوب، و غدا بإذن الله لكلّ حادث حديث".

"صدقت، نِعم الرّأي يا "جليل"".

أقاموا الخيمة و بقوا فيها، انتظروا بفارغ الصّبر صباح الغد، فمع الصّباح تشرق بشائر الخير بالتّأكيد، هذا الذي كانوا يعتقدونه.

أظلمت بسرعة و كأنّ المغرب و العشاء سيّان، و انقلبت الحرارة برودة لا تُحتمل، و كأنّهم في أحد القطبين، لم يستطيعوا النّوم حتّى اجتمعوا على بعضهم ليتدفئوا، فكان لهم بعض ذلك و ناموا نوما متقطّعا غير مستمرّ، منقلبين على بعضهم تقلّب الدّيدان إذا حُشرت و تكدّست.

في ذلك الوقت كانت طائرة الإمبراطور في طريقها إلى "جمهوريّة النّوارس"، طائرة ليست كغيرها من الطّائرات، لا يمكن كشفها بالرّادارات، ولا رؤيتها من فوق لبعدها عن نطاق الكشف.

لماذا أرسل هاته الطّائرة؟ و ماذا فيها ؟

إنّها طائرة حربيّة من آخر طراز، آخر تكنولوجيا وصل إليها البشر إلى الآن، تحمل في بطنها طفلا على وشك الخروج: قنبلة نوويّة تساوي خمسمائة ضعف قنبلة القيصر التي عُرفت آنذاك كأكبر و أقوى قنبلة هيدروجينيّة في العالم، تطلقها الطّائرة على عاصمة "جمهوريّة النّوارس"فتأخذها و كلّ العواصم الأخرى مرّة واحدة.

هذا الذي أراده الإمبراطور، و هذا انتقامه الموعود، انتظر أخبار وصول صغيره إلى أجواء الجمهوريّة التي لعنها و لعن من فيها.

"اليوم يومكم، سترون ما يمكن أن يفعله الإمبراطور المعظّم، لن يُذكر لكم مكان ولنسوْن في صفحات الزّمان بعد أن تنفجر "النّجمة"عليكم، سيُشفى غليلي عن قريب، ما هي إلاّ ساعات قليلة وأقتصّ منكم يا من تجرّأتم عليّ".

رفع بها الإمبراطور صوته ضاحكا في المجلس الذي جمع فيه كلّ قادته ورجاله السّياسيين، أمام شاشة عملاقة تنقل آخر الأخبار من كلّ أنحاء العالم.

مرّ الوقت سريعا وهذا يوم جديد، في صحراء "جمهوريّة النّوارس"تستيقظ الشّمس مبكرة، فعمّ ضياؤها أرجاء الكون الفسيح، جالبة معها حرارة تبسطها بكرم على الرّمال والأحجار، وفي كلّ مكان، فلا يبقى حيّ أو جامد

إلاّ التفح بحرارتها، أصدقاؤنا قيام منذ السّاعات الأولى من هذا الصّباح، انتظروا الخبر اليقين بشوق كبير.

"لم يحدث شيء البارحة، تتبّعت كلّ النّشرات الإخباريّة و لا جديد".

"لا تقلق، ربّما في الدّقائق أو السّاعات المقبلة القادمة، علينا فقط أن نصبر".

"لكن يا "جليل"، المؤونة تنفد، لم يبق لنا الكثير من الأكل، قارورة ماء فقط، ماذا لو لم يعد السّائق ؟".

"سيعود، من المستحيل أن يتركنا هنا".

"و ما يدريك يا "عصام"؟".

"لم يسترجع حقيبته و خيمته".

"فعلا صدقت".

"ما بقي لنا سوى الانتظار يا إخوة، فلنتابع الأخبار".

"حتّى بطّارية الحاسوب المحمول شارفت على الانتهاء، علينا أن نشحنها من جديد".

"كيف نشحنها؟ و من أين ؟".

"صحيح، نسيت، إذن فلنغتم الفرصة قبل أن ينطفئ".

ما إن تحرّكوا ليعودوا إلى خيمتهم حتّى أظلمت السّماء فجأة، فاستحال الأزرق إلى سواد، وظهرت نجمة مضيئة من بعيد، من جهة الشّمال، برّاقة جميلة، منظر فائق الجمال، غير أنّه مخيف، طفقت تلك النّجمة تكبر رويدًا رويدًا، لتصير كرة ككرة الشّمس تنتفخ و يتضاعف حجمها.

"انظروا ... انظروا هناك، ماذا يحصل؟ ما هذا ؟".

"يااااه ألعاب ناريّة".

"ليست ألعابًا ناريّة بل كسوف".

"أليس الكسوف هو اختفاء الشّمس؟ هنا نرى نجما يستحيل إلى شمس صغيرة تكبر بسرعة".

"لا يمكنني تفسير ما أرى سوى أنّه جميل، فعلا جميل".

تكبر الشّمس تلك أكثر فأكثر، وتزيد ظلمة الكون حولها، وكأنّها تريد التهام الآفاق بنورها الوهّاج، في تلك اللحظة يخطفهم صوت عظيم كصوت صاعقة اهتزّت لها زوايا الأرض والسّماء، صوت سكن الرّوح وأعماق

القلب، في كلّ ذرّة من ذرّات الجسد، زعزع الأوصال، أذاب الجليد و جمّد ما سال وتبخّر، لم يدركوا ماذا حصل، فقط أخذتهم الدّهشة وبقوْا في أماكنهم كأصنام قوم إبراهيم، لا يتحرّكون و أعينهم شاخصة في أفق تلوّن على غير العادة، بألوان زاهية، ارتفع من بطن الكرة تلك عمودٌ في السّماء رماديّ، حول خصره حلقات متتالية، شكّلته غيوم مجتمعة إلى غاية قمّته وكأنّها أيد متشابكة تحمل ثقلا عظيما، وكان هذا الثّقل في نهاية العمود كتلةً لا تُقدّر من دخان ينتشر بسرعة في الفضاء الذي استعاد عافيته رويدًا رويدًا، استرجع ضوءه الذي غطّته ظلمة انسحبت بخجل...

أحسّوا بنسمات حارّة آتية من تلك النّاحية، من الشّمال، وكأنّها تقول:

"ابتعدوا فلستم أهل لأن تتمتّعوا بهذا النّور".

ثم سكون ...

وأيّ سكون ؟

ذاك السكون الذي يشبه الفقدان ...

يشبه الضّياع وسط محيط هادئ ...

سكون اللّحظة التي تُفجع فيها بخبر وفاة أمّك ...

سكون رهيب ... يهزّك رغمًا عنك ...

و يجعلك بإرادتك تضيع ...

نعم ... لقد وضعت الطّائرة الحربيّة حملها، وعبث صغيرها في الشّمال عبثًا أزال معه تضاريسه، لم تبق سوى الصّحراء شاهدة على المصيبة، واقفة على الأطلال، هذا إن بقيّ بعض منها تذكّرها بالماضي القريب.

لحظتها وصلتهم رسالة، بصعوبة عاد "جليل"إلى الخيمة وأوصاله ترتعش، لقد كان "أزرق"، هذه المرّة اكتفى فقط بإرسال شريط فيديو قصير، وليس كما العادة في الفيديو المباشر، يفتح "جليل"المشغّل:

"لقد تمّ خداعكم بنجاح ... إنّها النّهاية".

الفصل العاشر: العمّ "سام"

ماذا حصل بالضّبط؟ هذا السّؤال الذي راود ثلاثتهم وهم على تلك الحال من الفزع والخوف ...

ما الذي جرى؟

أين الدّعم؟

أين الأمم؟

أين الأخبار التي تبشّر بقيام جمهوريّتهم؟

لا شيء، يبدو أنّهم لن يسمعوا بها أبدا.

"لقد تمّ خداعكم بنجاح ... إنّها النّهاية".

كانت هاته الكلمات كالسّيف الذي شقّ قلوبهم.

ما معنى كلّ ذلك ؟

الجواب هو أنّ كلّ ما حصل كانت خطّة محكمة استُغلّ فيه غباء ثلاثة مجانين للإطاحة بدولة بأكملها.

كيف؟

العودة إلى نقطة البداية لفهم ما جلبته النّهاية:

"مقهى السّابعة"، المكان الذي التقى فيه "جليل"، "عصام" و "مروان"بالسيّد "زكيّ" والسيّد فريد"، المنتميان لـ "نادي الحقيقة"، والذي يتكفّل بتحقيق أحلام كلّ جريء ...

هذا النّادي كذبة كبيرة ...

فما هو في الحقيقة غير مكتب استخباراتيّ، هدفه التجسّس و الإيقاع بالأنظمة، حيث يتمّ استغلال واستثمار كلّ القدرات والكفاءات التي ارتادت المقهى في توجيهها ضدّ الحكومة وضربها بها لخلق صراعات ومشاكل داخلية تؤدّي بعد التعفّن إلى أزمات فعليّة، يتدخّل فيها ممّولها الرّئيسي وراعيها الرّسمي: "العمّ سام".

هذه الكفاءات يتمّ إقناعها بالتمرّد على النّظام الحاليّ، عادلا كان أم ظالماً لا يهمّ، تكون المهمّة صعبة إذا تميّز الشّخص المُستهدف بالوعي والذّكاء، وخصوصا الفطنة، لكن إن وقع في الشّباك فسيُسيّر بدهاء ليكون سلاحًا فتّاكا ضدّ بني جلدته، ولربّما يودّ هذا الشّخص أن يقوم بمشروع فيتدخّل المدعوّ "زكي" ليستميله ويحوّل مشروعه ليكون خطّة جديدة ضدّ الوطن ومصالحه بمساعدة "أزرق"، القرصان المعلوماتيّ الوحيد الذي يتعامل معه "زكيّ".

"زكيّ" من الخونة الذين أقسموا أن يجعلوا "جمهوريّة التّوارس"جحيما، "أزرق" من معاونيه الأوفياء و هو من هذا البلد أيضا، خونة من أبناء الوطن، إلاّ السيّد "فريد".

في الفرقة الواحدة ثلاثة عناصر كأقصى تقدير، تعمل مع بعض و بسريّة كبيرة، هناك الآلاف منها منتشرة في كلّ بقاع الأرض، في كلّ بلد تجد فرقة عالية الكفاءة، تعمل في الخفاء، تنقل جديد الأخبار وما اكتُشف من أسرار إلى وكالة المخابرات المركزيّة الأمريكيّة، هاته الفرق مُموّلة، تتوفّر على تقنيّات جدّ حديثة ومتطوّرة، كالإنترنيت عالي الكفاءة والذي لا يعتمد على الطّرق التّقليديّة لإيصال حزم البيانات، بل بطرق سريّة أخرى غير معروفة بعد.

لكلّ فرقة قائد، وقائد فرقة "نادي الحقيقة"هو السيّد "فريد"، أو بالأحرى السيّد "جونس"، صاحب اللّكنة الغريبة التي تميل إلى الإنجليزيّة، نعم هو أمريكيّ تعلّم اللغة العربيّة، أمر ضروريّ لمثل هاته المهام.

التقط الطّعم هاته المرّة ثلاثة مغفّلين، لكنّ مشروعهم كان يخدم أجندة "العام سام"فاستطاعت الفرقة أن تضلّلهم بسهولة و تتلاعب بهم ببساطة، سيروهم كما شاءوا، بل، و أخذوا مبلغا خياليًّا –سبائك ذهب- لقاء خدمات وهميّة.

سهُلت عليهم المهمّة هاته المرّة، فطلب "جونس"من "زكي"أن يحجز لهم في أوّل طائرة للرجوع إلى الولايات المتّحدة في الوقت الذي كان "أزرق"يقنع المجانين الثّلاث بقرب تحقّق حلمهم الذي لن يرى النّور، بعد رحلتهم إلى الصّحراء عاد "زكي"ومعه ثلاثة تذاكر، واحدة له، والأخرى لرئيسه، الثّالثة للسّائق الذي عاد سريعًا بعد أن رمى أصدقاءنا في أرض جرداء، أمّا "أزرق"، فيعمل بعيدا في بلد آخر.

استبق "جونس"الأحداث و أدرك أنّه لن يبقى من "جمهوريّة النّوارس"سوى صحراء قاحلة بعد هجوم الإمبراطور عليها.

تدمير البلدن، إعادة رسم الخريطة العالمية بحسب خطط أمريكيّة، إضعاف الأمم، نشر الأوبئة والأمراض، تعميم الجهل، تكريس الفقر، ضرب العقائد و الأخلاق، هذه هي الأهداف الرّئيسيّة التي تحملها كلّ فرقة.

خرج "العمّ سام"من هذا البلد الذي صار رميما منتصرًا مرّة أخرى، أمّا بالنّسبة لهؤلاء الثّلاثة فيبدو أنّهم قاموا بما لم يقم به أحد من قبلهم: قَضَوْا على أمّة بأكملها بسبب غبائهم، جهلهم و جشعهم، فوجدوا أنفسهم وحيدين لا حول لهم و لا قوّة.

أرسل لهم "أزرق"فيديو أخير يخبرهم بأنّ قنبلة نوويّة عظيمة أطلقها "الإمبراطور"على "جمهوريّة النّوارس"أتت على الشّمال فمسحته، ذلك نتيجة تصديقهم بحلم عابث أردوا تحقيقه عنادا و جهلا.

"يا رفاق، لقد خُدعنا".

"بالفعل يا "عصام"الآن أدركت أنّنا خُدعنا ".

"تبًّا لنا، لقد قضينا على شعب بأكمله، أين نعيش الآن ؟".

"والله سؤالك سؤالي".

فكّر ثلاثتهم للحظة ثمّ قال "جليل":

"ننسى الآن أمر "جمهوريّة الحريّة العظمى"ونهرب إلى بلد آخر قبل حلول مصيبة ثانية علينا، فعلى ما يبدو أنّنا الثّلاثة الأحياء الباقون في هذا البلد".

"نِعم الرّأي يا "جليل".

"لكن كيف نسير في هاته الحرارة؟ كيف نقطع الكيلومترات تحت هاته الشّمس ؟".

"لا تقلقا، الحلّ موجود".

اقترب "مروان"و "عصام"منه و قالا بصوت واحد:

"ما هو ؟".

ابتسم "جليل"ابتسامة من فكّر بالأمر قبل ساعات، ووجد الحلّ حينها وهو مطمئنّ البال:

"أحقًّا لم تجدوا حلاًّ لهاته المشكلة البسيطة ؟".

نظر كلّ واحد فيهما في الآخر، مستغربان لا يعلمان ما الحلّ.

"فعلا غبيّان، السّائق، السّائق سيعود لينقلنا إلى مكان آخر بعيد عن هنا، إلى بلد آخر نعيش فيه، فمن المستحيل أن يستغنِيَ عن حقيبته و خيمته هاته".

نظرا فيه نظرة دهشة و إعجاب:

"نركب معه و ينتهي المشكل".

طال الصّمت، ثمّ في لحظة من اللّحظات صرخ "مروان":

"عبقريّ، والله عبقريّ، نسينا تماما أمر هذا السّائق و حاجياته، أحسنت يا "جليل".

نظر "عصام"في "جليل"بإعجاب، اقترب منه، وضع يده على كتفه، أغلق عينيه، و بتأثّر كبير قال:

"كنت أعلم أنّك الرّجل المناسب في المكان المناسب، فعلا أنت قائد فذّ".

سعد "جليل"بما سمع، و ردّ على مدح صديقه:

"مشكور أخي، الرّجال الحقيقيّون يُعرفون وقت المصائب".

تعانقوا و عادوا إلى الخيمة آملين قدوم السّائق ليخرجهم من الصّحراء، تغمرهم الفرحة و البهجة رغم ما حصل، ناسين للتوّ ماذا فعلوا، غير آبهين بمدى المصيبة التي تأتّت عنهم، تسامروا و أخذوا من الوقت ما يقرّبهم من ميعاد ترك هذا المكان ...

والذي ظنّوا أنّهم تاركوه ...

وما هم بذلك ...

لا الآن ...

ولا بعد ساعة أو يوم ...

ولا حتّى بعد سنة أو سنتيْن ...

لأنّ أمل الأغبياء حلم صبيان خياليّ ...

لأنهم رأوْا الواقع كما أرادوا و ليس كما هو ...

حسبوا الحقّ معهم و غيرهم ضالّون...

جادلوا بغير علم و تفقّهوا في علم الجهالة فكانوا أئمّته ...

لم يبالوا بخطر، لم يندموا على فعل أو قول ...

هذه هي حال من أغلق أبواب عقله و تمادى في حمقه، و تلك هي "جمهوريّة الحمقى"يبنيها السّفهاء في واقعهم الغائب و يريدونها أصلا في الواقع.

خاتمة

إن أردت أن تدمّر شعبًا، أمّةً، عليك أن تؤلّب عليها مفكّريها وتزهد في علمائها ومُصلحيها، كذلك أن تشجّع الجهلة وترفع قدرهم، وتجعل الأغبياء السّفهاء منهم في أجلّ مقام، سترى انزلاق كلّ شيء في منحى تنازليّ مستمرّ في بضع سنين.

ذلك إن وُكّل إلى الأحمق الجاهل العنيد مسؤوليّة ما، لم يعرف قدرها وجعلها لعبةً، إن خسرها قال ذلك من قواعدها ولم يأبه بكبير خسرانه ولا بشدّة المصيبة التّي حملت معها الأحزان، وإن أفلح قال هذا من فطنتي وذكائي، و ما هو بالأوّل أو الثّاني، بل من تقاعس وتراخي من تركوا لهؤلاء مجالا يعبثون في جلل الأمور كما شاءوا، يعيثون في الأرض فسادًا تحت رعاية من أوصلوهم إلى تلك المراتب، و بسكوت العلماء الذين حسبناهم دائما أتقياء أنقياء أمّارين بالمعروف ناهين عن المنكر.

هذا النّوع من البشر الذين لا يتوبون من كفر حمقهم، مآلهم جهنّم النّسيان وسعير الاستبعاد حتّى إذا أخذوا نصيبهم من عذاب الوحدة والتّهميش استكانوا إلى الرّأي السّليم القويم، وكبتوا عقولهم الحالمة خوفا من سخرية العاقلين بهم، وقد حاق بهم أن يسخروا منهم في سفاسف الأمور، فما بالك بـ"جمهوريّة" تقام على أكتافهم الهشّة وتتمايل على أنغام شطحاتهم المجنونة ؟

إنّ العقل قاصر و للحُلم حدود، الهزل له مواقف، و الجدّ يقام به الوجود.

محتويات الرواية

إهداء.....5
مقدّمة..... 6
الفصل الأوّل: جليل.....10
الفصل الثّاني: مروان.....22
الفصل الثّالث: عصام.....33
الفصل الرّابع: يوم التقى المجانين.....42
الفصل الخامس: الجمهوريّة.....57
الفصل السّادس: المِصيدة.....74
الفصل السّابع: القرصان.....90
الفصل الثّامن: ردّ الإمبراطور.....102
الفصل التّاسع: النّهاية.....113
الفصل العاشر: العمّ "سام".....123
خاتمة.....132
محتويات الرواية 135

ـــــــ تمت بحمد اللّه ـــــــ

جمهورية الحمقى

رواية

أوكفيل عبدالحكيم

الطبعة الأولى
1442 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com